
فيروز

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: فيروز

اسم المؤلف: رحاب سمري

التدقيق اللغوي: خلود أحمد

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ١٥٥١١ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٨٧٤-٨٩-٣




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

فيروز





إهداء

إلى مليك قلبي وأنيس أيامي ورفيق دربي وشريك عمري وأوقاتي..

اعتدت على الرسم.. رسم الشخوص ونسج الأحداث وربطها جيدًا حتى تصبح قصة.. استراحة قصيرة من الزحام.. أغرق فيها مع أبطال من صنع خيالي..

ربما ألقى أحدهم تعويذة كما ألقاها على (بونوكيو) ليتحول أبطالي الخياليون إلى بطل واحد حقيقي اجتمعت فيه جميع الصفات..!

بالأمس أهديت لكَ رُوحي واليوم أُهدي لكَ حُروفي..

أدامك الله لقلبي أعز حبيبًا وأحب صديقًا و أصدق شريكًا..

إلى زوجي الغالي المهندس محمد سنجاب..

الشكر والامتنان من صميم قلبي إلى

عائلتي الحبيبة - سندي - إلى الما لانهاية وما بعدها..

إلى المهندس شاكر عاشور الذي حرص على اقتناء العمل قبل طباعته كما حرص على خروجه للنور..

إلى ملك محمد رفعت أول من قرأ الرواية..

الفصل الأول

صباح يوم الجمعة حيث تبدأ جميع أحداث هذا المنزل العتيق... الجد الأكبر كان أحد أهم رجال هذه البلدة شأنه شأن جميع الكبار في ذلك العصر القديم، كان له منزل كبير مزودًا بحوش واسع يكون ساحة للعب الأطفال تارة، وساحة لتعذيب الفلاحين إن قصروا تارة أخرى.

كان الجد قاسيًا صلبًا لا يعترف بالمشاعر الإنسانية، يهابه الجميع حتى أهل بيته؛ لذا كانت علاقته بزوجته علاقة رتيبة كعلاقة الرئيس بموظفيه.

تأخرا في الإنجاب عدة سنوات ورُغم إلحاح من حوله بضرورة البحث عن أخرى تجلب له الذرية كان يرفض ذلك الأمر بشكل قاطع غير قابل للنقاش، وفي حقيقة الأمر لم يكن يعرف سر رفضه هذا، هل يحبها لهذه الدرجة ويخاف أن يجرحها؟! ولكن كيف و هو لم يصرح لها ولو بفعل واحد حقيقة مشاعره، بل ويعاملها بغلظة!

أما هي فسكنت له ولتمسكه بها لهذا الحد كانت تثق في أخلاقه واستحالة أن يكون له بيت وزوجة غيرها؛ لذا تحملت منه قسوته

بصدر رحب، بل وعملت طيلة تلك السنوات العشر على راحته، فلم ينشأ بينهما خلاف واحد.

كل ما يتمنَّاه الرجل بيت هادئ وزوجة تدير منزلها بنشاط وحكمة واقتصاد، وعندما يأتي في نهاية كل يوم يجد طعام يسر معدته وابتسامة تسر عينيه، ومعاملة تسر قلبه وهذا ما وفرته له سمية على أكمل وجه.

وبعد عشر سنوات على زواجهما حدثت المعجزة وحملت سمية، طار الدسوقي - زوجها - من السعادة، فقرر أن يغدق بكرمه على جميع أهل البلدة، بل وأصبح أقل غلظة مع زوجته؛ عين لها خادمات أكثر وأصبح يطل عليها بنفسه ليسأل عن أحوالها.

سعدت سمية بهذا التغيير رُغم إحساسها بأن هذا الاهتمام الطارئ ما هو إلا للذي بين أحشائها وليس لها، لكنها سعدت بكل هذا الهناء، حتى اقترب موعد ولادتها وزادت معه آلامها حتى باتت تصرخ ليلًا نهارًا، لم ترحمها والدة زوجها وأبدت انزعاجها لابنها من "دلع" زوجته المبالغ فيه، لكنه كان قلقًا عليها حقًّا... خائفًا أن يفقد في آخر لحظة ما طال انتظاره له سنوات طوال.

كانت سمية تعلم مدى انتظار زوجها لولد من صلبه، بينما هي كانت تتمنَّى أن تربي فتاة تغدق عليها حنانها المخزن طيلة سنوات عدة، لكن ردة فعل زوجها كانت تخيفها بشدة.

وأخيرًا جاءت لحظة الولادة وصراخ سمية يعلو ويعلو والدسوقي يذهب ويجيء في خوف وقلق، جاهد ألا يظهره أمام الخادمات و "الغفر" لكنه فشل مما زاده حنقًا وغضبًا، لكن تلاشى كل ذلك عندما سمع أخيرًا صوت صراخ جديد غير صراخ زوجته.. صراخ وليده.. ولي العهد المنتظر.

دمعت عيناه وهو يسجد لله شكرًا غير مصدق أنه وصل سالمًا بعد كل هذا العناء، ولكنه سرعان ما سمع صوت صراخ آخر تبعته "زغرودة" من غرفة زوجته،

اقترب من الغرفة مندهشًا لا يعلم ماذا يحدث حتى خرجت له إحدى الخادمات تبشره أن زوجته وضعت طفلين؛ ولدًا وبنتًا - سالم ومحروسة.

في ليلة وضحاها تبدَّل حالها، فبعد سنوات من الحرمان أصبحت الآن أُمًّا لطفلين، ورُغم صعوبة وضعها الجديد إلا إنها تقبلته بحب كبير وقوة تحسد عليها.

كرَّست حياتها لطفليها دون أن تقصِّر في حق الدسوقي مما زاد محبتها في قلبه واعتزازه بها، وكأن الله يكافئهم على صبرهم؛ فسرعان ما نبتت في أحشائها نبتة جديدة فرح لها الدسوقي كفرحته الأولى.

مرَّت الأيام وكبر الأولاد معًا، فالفرق بين سالم ومحروسة وحسن و فتحية عام واحد فقط، واستقروا في بيت العائلة الكبير

حتى بعدما تزوجوا، وظل يوم الجمعة هو موعد لقاء العائلة الثابت على مائدة الإفطار..

لاحظ الجد - الدسوقي - تبدل حال حفيده محسن وحيد سالم الذي عانى من صراع طويل مع العائلة بشأن رغبته في الزواج من غريبة قاهرية ورفضه لنورا ابنة عمته فتحية، ولكن تفاجأ الجميع بوقوف الجد مع محسن مما جعلهم يرضخون لرغبته كارهين.

تبدل حال الدسوقي كثيرًا بعد وفاة زوجته الحنونة سمية.. أصبح أكثر عطفًا وحنانًا وكأنها قبل أن ترحل تركت له قلبها النابض مدى الحياة.. اكتفى بالعيش بين أولاده وأحفاده وترك كل شيء لولديه سالم وحسن.

– مالك يا محسن يا بني.. أنتَ كويس؟

اقترب محسن من جده وقبّل رأسه وهو يقول: أنا كويس طول ما حضرتك كويس يا جدي.

– أومال الهانم مراتك فين مش شيفاها يعني، ولا تكونش لسه نايمة؟!

قالتها إلهام والدته بعنف، فقال بضيق وحنق: راحت تزور أهلها.

– لوحدها كدا! وبنتك؟

- معاها يا أمي.

- بس كان واجب عليك توصلهم يا محسن يا بني بردو.

- هي اللي طلبت ياجدي.. عن إذنكوا هطلع اجهز للصلاة!

- ابقوا قابلوني لو رجعت تاني!

- اسكت يا سالم.. مش عاوز حد يتكلم في الموضوع دا تاني.. قالها الدسوقي بحزم وعمَّ الصمت على المائدة.

***

على شاطئ المدينة الساحرة كانت تسير بلا هدف محدد، تركت العنان لقدميها كما تركته لمقلتيها... تغيَّر الطقس في لمح البصر وغضبت الطبيعة من حولها لهذا التغير ، فهاجت الأمواج وأخذت تضرب الشاطئ بقوة، واشتدت حركة الرياح من حولها حتى ظنتها تدفعها..

أسرع جميع من حولها للهروب خوفًا أن تحلَّ عليهم لعنات غضب الإسكندرية، بينما هي ظلت تسير بنفس الوتيرة وهي تبتسم بسخرية.

لقد رأت تبدل حال من حولها بعدما تغير الطقس كحال جميع من حولها عند حلول أي عاصفة قوية في حياتها، الجميع يسرع بالهروب والابتعاد، بينما تبقى وحدها في قلب الحدث.

هطلت الأمطار واختلطت بدموعها المنهمرة وما زالت تسير دون التوقف أو الابتعاد، وفي أذنها سماعاتها تنقل إليها ألحانًا تسمعها بقلبها قبل أذنيها، وصوت وردة يشدو بشجن: "راحوا فين حبايب الدار فين فين قولي يا دار...

لياليك كانت نور...

يسبح فى ضيه بحور صرخة صدى مهجور مرسوم فى كل جدار...

راحوا فين حبايب الدار فين فين قولي يا دار...

داري الدمع يا عين داري داري...

متزوديش الغيم فيه رب اسمه كريم...

ساعة المحن ستار راحوا فين حبايب الدار ...

فين فين قولى يا دار.."

وصلت إلى محطة القطار لا تعرف كيف، لكن يبدو أن موعد رحيلها قد آن..

شعرت بالبرودة تعتري جسدها، لقد ابتلت ملابسها بالكامل ويبدو أنها ستعاني من نزلة برد شديدة.

تمالكت نفسها وقررت أن تبتاع كوبًا من القهوة علَّ حرارتها تهدأ

من برودة جسدها، لكن هل مرارتها ستستطيع تهدئة ما بقلبها؟!

كانت ترتعش وتحاول جاهدة أن تتماسك حتى لا يسقط منها كوب القهوة الصغير، ووقفت مستندة على إحدى الحوائط تحتسيها بإنهاك شديد.

انقطع الصوت من سماعات الأذن فبدا عليها الضيق وهي ترى هاتفها وقد نفذت بطاريته، تنهدت بقوة وحنق، فهي مضطرة الآن لسماع أصوات البشر الكريهة

ظلت تزفر بضيق وهي تنظر حولها علَّها تجد متجرًا للهواتف حتى لفتا نظرها فتاة صغيرة تبدو في الثالثة من عمرها، تبدو خائفة تتساقط دموعها بصمت وهدوء - تمامًا كما تفعل - سلبت قلبها وكل تفكيرها.

اتجهت لا إراديًّا للفتاة ولاحظت هذا الغريب الذي يجلس القرفصاء ويحاول تهدأتها.

تراجعت بحرج ظنًّا منها أنه والده، لكنه نظر إليها يرجوها أن تقترب وتساعده..

- أنا آسف بس بقالي معاها ربع ساعة مش قادر أفهم منها حاجة ولا عارف فين أهلها؟!

- أنت لاقيتها فين طيب؟!

- لاقيتها هنا في المحطة ومش فاهم هي تاهت من أهلها في المحطة، ولا نزلت من القطر اللي وقف هنا!

قبض قلبها وهي تتخيل مصير هذه الفتاة التائهة، تبدو صغيرة للغاية لن يفهموا منها شيئًا.

جلست مثله وقالت بلطف وحنان لتطمئنها: حبيبتي.. أنتِ جيتِ هنا ازاي؟ وماما كانت فين؟

نظرت إليها الفتاة بحزن شديد، وارتمت في حضنها، ضمتها بقوة وكأنَّها هي من تحتاج إلى هذا الحضن.

بكت الفتاة بصوت مسموع وهي تتشبث بها أكثر وتركت هي العنان لعبراتها، وصوتها أيضًا، ووقف هو في حيرة من أمره وأمامه طفلتان تجهشان بالبكاء.

بعد عدة دقائق سكنت الفتاة الصغيرة وهي متشبثة بها ويبدو أنها نامت!

همس لها إلياس: البنوتة نامت.. ممكن تبطلي عياط!

انتبهت ليلة وقالت بحرج: أنا آسفة!

- طيب هاتيها أنيمها على الكرسي هنا لحد ما نشوف هنتصرف ازاي..!

لم تعلق فاستطرد قائلًا: أنا آسف إني دخلتك في المشكلة دي..

ممكن تكملي أنتِ طريقك وأنا هفضل معاها لحد ما أوصلها لأهلها...

فكرت قليلًا ثم قالت: لا أنا هفضل معاك..

- هو دا أفضل لأن واضح إنها اطمنت معاكِ، لكن بردو أنت بنتِ والوقت هيتأخر... أكيد أهلك هيقلقوا.

ابتسمت بمرارة وقالت: لا.

شعر أن هناك سرًّا خلف تلك العيون، لكن الوقت غير مناسب لأي شيء آخر.

- طيب احنا هنتصرف ازاي دلوقتي.. لو كانت تاهت من مامتها هنا في المحطة كان زمانها بتدور عليها.

- أنا شاكك إنها خرجت من باب القطر لما وقف... أنتِ ما شوفتيش كانت بتبص للقطر اللي وصل ازاي.

- طيب احنا ممكن نسأل عن القطر اللي وصل هنا قبل التوقيت اللي أنت شوفتها فيها ونعرف خط سيره إيه.

- أيوة بس بردو هنعمل إيه لو عرفنا؟! دي ممكن تكون من أي بلد القطر هيعدي عليها... شكله موضوع كبير.

- طيب أنت لو وراك حاجة ممكن تروح وأنا هشوف الموضوع دا.

- هسيب طفلتين وامشي ازاي يعني؟!

- طفلتين!

قال بإحراج شديد: أنا آسف.. آسف والله مش قصدي..!

قالت بتهكم: ما تتأسفش.. عندك حق فعلًا.

- طيب ممكن تفضلي هنا بس هروح أجيب حاجة.

- آه أكيد.. اتفضل!

غاب لدقائق ثم عاد ومعه عدة أكياس..

- أنا مأكلتش حاجة من الصبح وحسيت أن شكلك بردو مرهق، فجبت حاجة خفيفة ناكلها وقهوة عشان نقدر نبدأ مشوارنا.

وافقته بإيماءة بسيطة وهي تتناول منه ما أحضر، وجلسا يأكلان في صمت أراد أن يقطعه، فقال: إلياس..

- نعم؟

- اسمي إلياس.

- إلياس!

- اسم غريب شوية أنا عارف..

- لا عادي..

- طيب وأنتِ اسمك ايه؟!
- ليلة.
- اسمك جميل جدًّا... ليلة.
- متشكرة.
- أنتِ من اسكندرية أصلًا؟
- لا.

شعر بتحفظها في الحديث فالتزم الصمت.

مرَّت بعض الدقائق في صمت مطبق حتى سمع صوت بكاء مكتوم، التفت إليها فوجدها تبكي في صمت وهي شاردة بنظراتها، شعر بخوف خفي عليها، فقال بصوت هادئ: مرة كنت راكب أتوبيس وكان أدامي اتنين شكلهم أول مرة يتقابلوا، واحدة ملامحها هادية وبشوشة و مريحة جدًّا، واللي جنبها شكلها بتعاني من مشكلة معينة، ومرة واحدة قالتلها: ممكن احكيلك حاجة؟

استغربت، لكن قالتلها بابتسامة: آه.. أكيد.. أنا اسمي..

وقبل ما تقول اسمها قاطعتها وقالتلها: أنا مش عاوزة اعرف اسمك.. عاوزة بس أفضفض معاكِ وانزل المحطة الجاية وأنا سايبة جزء من همومي...

مش عاوزاكِ تقوليلي أي حل.. اسمعيني بس وطبطبي عليا.. يمكن في يوم تفتكريني وتدعيلي ودعواتك تستجاب وتوصلي...

وفعلًا قعدت تحكيلها كل اللي في قلبها، وأول ما خلصت كلام كانت محطتها جات، سلمت عليها وهي مبتسمة ابتسامة جميلة أوي وشكرتها ونزلت.

ابتسمت ليلة بمرارة وسخرية ولم تعلق، فأسرها إلياس في نفسه وعزم ألا يحاول بدأ أي حوار معها مجددًا، وأن يركز تفكيره فقط في هذه الفتاة التائهة حتى ينتهي كل ذلك ويعود إلى حياته.. شرد للحظات وهو يتذكر حياته تلك!

أي حياة التي تريد أن تعود إليها يا إلياس؟! أتسمي سلسلة البؤس هذه حياة؟!

ابتسم بسخرية شديدة وهو يتذكر أنه أتى إلى الإسكندرية خصيصًا بلا هدف محدد، لم يحدد وجهته ولا يعلم بأي مسكن سيبيت...

الفصل الثاني

تحاشى محسن الحديث مع أي شخص من العائلة وتهرَّب من مائدة الغداء، فهو يعلم كل ما سيفعلونه مسبقًا.. لن يساندوه في خلافه الكبير مع زوجته..

سيوبخه الجميع، فهو من أصرَّ عليها ورفض نورا تلك البريئة التي تربَّت معه تحت ظل البيت الكبير.. يحفظ كل منهما طباع الآخر، لكن كيف؟!

كيف يتزوجها وهي صديقة طفولته!

ما ذنبه أنه وحيد والديه؟ لم يعرف له إخوة غير نورا!

كان يعلم أن معاذ صديقه يحبها منذ كانوا أطفالًا...

تمسك برفضه الشديد لها حتى لا يقف في طريقهما، وبالفعل وافقت العائلة بسهولة على خطبة معاذ لنورا دون تعقيدات، ظنًّا منهم أنه أُرسل لنورا في الوقت المناسب كي يضمد جرح رفضها من محسن.

ذهب إلى مزرعة العائلة بعد صلاة الجمعة دون أن يلاحظه أحدًا، وجلس هناك كما كان يفعل دومًا، ثم أغلق هاتفه وتركه في

المنزل وجلس يفكر في الأحداث الأخيرة وخلافاته مع أمل التي تطورت إلى هذا الحد.

استغرق في شروده وأحزانه ولم يلحظ مرور الوقت وغياب الشمس من السماء، انقلب الطقس وهطلت الأمطار الغزيرة، قرر الهرب سريعًا من هذه الأجواء، ولكن كانت الأرض قد تشبعت بالمياه حتى أصبح السير عليها أمرًا عسيرًا للغاية..

حاول المحافظة على اتزانه لكن انزلقت قدميه في إحدى الممرات الضيقة بين الزرع، وسقط أرضًا مصطدمًا بحجر كبير أفقده الوعي مباشرة.

***

استيقظت الفتاة الصغيرة.. نظرت حولها بخوف وبدأت في البكاء الصامت مرة ثاني، أسرعت ليلة بتهدئتها بينما أعطاها إلياس بعض الحلوى التي ابتاعها لها وحاول ملاطفتها..

شعرت الطفلة ببعض الأمان معهما، فهدأت قليلًا وشرعت في أكل الحلوى بجوع شديد..

- البنت جعانة جدًّا.. أنت جبتلها حلويات بس؟

- أنا معرفتش هي ممكن تاكل إيه!

- طيب احنا ممكن نشوف أي سوبر ماركت ونجيب عيش

وجبنة

- لأ... حواواة!

كانت تلك أول جملة تنطقها الصغيرة..

- تقصدي حلاوة يا حبيبتي؟

لم ترد لكنها أشارت برأسها أنه نعم..

ابتسم إلياس بعذوبة وهو يرى ملامحها البريئة لأول مرة...

تبدو أنها من أسرة ميسورة الحال؛ فملابسها تبدو مهندمة وباهظة الثمن،

بشرتها البيضاء وعيناها الرمادية مع حمرة خدودها وشعرها الكستنائي الناعم أضفى على ملامحها جمالًا ملائكيًّا..

- حواواة ييا!

ضحكا على طريقة حديثها... تبدو مشاكسة للغاية!

- طيب هتيجي معايا نجيب الحواواة ولا هتستنوني هنا؟

موجهًا حديثه إلى ليلة، لكن ردت الصغيرة: هنا.

ذهب إلياس وهو يضحك، بينما احتضنتها ليلة وحاولت أن تعرف عنها أي شيء.

- أنتِ اسمك إيه يا كتكوتة؟

- يوزة.

- لوزة؟

- لأ... يوووزة.

- يعني إيه طيب؟

- يووزة.

ظلت هكذا حتى عاد إلياس، وقد فقدت ليلة الأمل في معرفة اسم هذه الصغيرة.

- حاولت اعرف اسمها بس فشلت فشل ذريع.

- أنتِ مش عارفة اسمك إيه؟

- يوووز .

- فيروز؟

صفقت بجذل وهي تحتضن إلياس وتخرج لسانها لـليلة لإغاظتها..!

- كان لازم أفهم فعلًا إن يوزة معناها فيروز!

قالتها بمرح طفولي وهي تعد لها شطيرة الحلاوة كما طلبت.

جلست فيروز ساكنة بينهما تأكل بجوع شديد مستمتعة بمذاق الحلاوة التي تذوب في فمها فتسعدها، وبعد أن أكلت كمًّا كبيرًا من الشطائر غلبها النوم مرة أخرى.

– الجو ليل أوي... هنتصرف ازاي دلوقتي؟

– أنا سألت في الاستعلامات هنا إذا كان حد سأل على طفلة تايهة، وطلبت منهم يراجعوا الكاميرات عشان نتأكد هي نزلت من القطر ولا تاهت في المحطة.

– طب والمراجعة دي هتخلص امتى؟

– مش هينفع غير بكرة الصبح... للأسف!

– هنفضل قاعدين هنا؟!

– أكيد لا.. لازم نفكر في حل.. أنتِ أصلًا ليكِ سكن هنا؟

– لا... وأنت؟

– لا بردو... أنا أصلًا مكنتش محدد هبات فين لما أوصل.

– طيب احنا ممكن نروح أي مسجد قريب من هنا ونستنى فيه للصبح!

– ليه مسجد! ممكن نروح أي فندق عادي!

ترددت بحرج، فنقودها بالكاد تكفي تذكرة القطر..

- عادي ماتتكسفيش..

الظرف دا خارج عن إرادتنا..

احنا ممكن ننزل في بانسيون..

ترددت ثانية وهي تفرك يديها: آسفة.. مش هينفع!

تنهد بإرهاق وقال: بصي... أنا متأكد إن كل واحد فينا ليه قصة ومأساة مختلفة، لكن احنا في ورطة دلوقتي، لو سمحتِ سيبيني أتصرف لحد ما نوصَّل البنت دي لأهلها وكل واحد يرجع لحياته تاني..

أنا مش مستني منك حاجة، ولا أنتِ مستنية مني حاجة.. اعتبرينا في مأمورية شغل ولازم نخلصها.. ممكن؟

شعرت أنها تجاوزت حدود اللياقة وأدب الحديث معه وكأنها وحدها البائسة على هذا الكوكب التعس، فقالت بنبرة هادئة: اللي تشوفه.

حاولت إيقاظ فيروز، لكنه رفض وحملها بين يديه واتجها خارج المحطة.

- أنت تعرف بانسيون كويس هنا؟!

- آه..

هو مش أحسن حاجة يعني بس هيكفي الغرض ومش هيركزوا معانا.

- يعني إيه يركزوا معانا؟!

- يعني مش هيتهمونا إننا خاطفين البنت مثلًا! أو يطلبوا ورق يثبت إنك مراتي!

شعرت بألم شديد في قلبها إثر سماعها لهذه الكلمة، ولاحت لها ذكريات تعسة

حاولت مقاومتها، لكن غلبتها دموعها مرة أخرى..

- يارب... يارب قدرني أوصل الأطفال التايهة دي بأهاليهم بقى..

أنا تعبت!

قالها بمرح وأداء تمثيلي مما جعلها تضحك بشدة..

تم كل شيء في "البانسيون" بسرعة كما قال إلياسٍ، فحجز له غرفة بجوار غرفة ليلة وفيروز، واتفقا أن يأخذا قسطًا كافيًا من النوم حتى يستطيعا بدأ رحلتهما الشاقة.

كانت ليلة في أشد الحاجة إلى النوم بعد كل هذه الأحداث.. تأكدت أن فيروز ما زالت نائمة واستلقت جوارها ونامت على الفور.

مرَّت ساعات الليل سريعًا وأشرقت الشمس، وسرعان ما انتشر الضوء في تلك الغرفة الضيقة متواضعة الإمكانات..

استيقظت ليلة متأففة، ولكنها شهقت بقوة عندما أبصرت جوارها ولم تجد فيروز.

***

كعادته في كل جمعة يختلي الدسوقي بنفسه في الغرفة التي جمعته وزوجته الراحلة..

صورتها المخبأة أسفل وسادته يتأملها كل ليلة وتدمع عيناه أسفًا على رحيلها..

رحلت قبل أن يخبرها عن كل شيء.. و أي شيء هذا؟! فقد كان جافًا.. غليظًا.. قاسيًا، لا يعلم كيف تحملته صاحبة القلب الحنون هذه؟!

ظل يتأمل الصورة فاقدًا شعوره بما حوله.. الصورة التي أهداه إيَّاها حفيده محسن بعد أن أخبره أنه يجيد الرسم ويستطيع رسم صورة لجدته وكأنها كاميرا قد التقطت ملامحها.. شجعه الجد، فلم يخذله و أخرج له هذه التحفة الفنية، ومن حينها ولمحسن مكانة خاصة في قلب الدسوقي...

ليس لأنه أكبر أحفاده فقط، لكن لأنه أعاد لعينيه ملامح حبيبته

الراحلة.

تنهد بقوة وهو ينادي عليه ليتناول معه الطعام، فهو لم يتناول طعام الغداء معهم ويعلم أن محسن بالتأكيد لم يتناول طعامه..

- أيوة يا جدي؟

- محسن فين يا نوارة؟!

- لسه مجاش يا جدي.

- مجاش منين؟ هو خرج امتى في المطر دا؟!

- لا يا جدي.. دا مارجعش من ساعة الصلاة، وكمان موبايله هنا في البيت.

نوارة آخر عنقود عائلة الدسوقي وابنة فتحية، طفلة ذات عشر سنوات لكنها كالعجوز التي لا يخفى عنها شيء، تعلم أسرار الجميع وتساومهم وتبتزهم بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة، لكنها فتاة مرحة مفعمة بالحيوية والطفولة،

الوحيدة التي أخذت ملامح جدتها؛ لذا لها دلال خاص...

- طب ناديلي خالك سالم يا نوارة!

- حاضر.

- ولا أقولك.. استني.. خدي بإيدي تعالي نروحله برا أحسن!

تفاجأ سالم أن محسن ليس بالمنزل، فقد توقع أنه في الطابق الخاص به، وبخه والده على قسوة قلبه وإهماله لولده الوحيد..

كان الدسوقي يخشى أن يرث منه سالم غلظة قلبه ويتجرع الندم كؤوسًا كما يفعل هو الآن، لكن كان يصبره أنه بالفعل يحب زوجته ولا يعاملها كما كان الدسوقي يعامل سمية.

- طب ادخل أنت يا حاج وأنا هبعت حد يشوفه!

- هتبعت مين بس يا بني في الجو دا ويشوفه فين؟!

- هكلم معاذ صاحبه أكيد هو عارف.

- كلمه أدامي هنا يلَّا.

- حاضر.

وبعد مكالمة سريعة بدأ القلق يتسرب إلى قلب سالم، فمعاذ لم يرَ محسن اليوم، ومن المفترض أن يوم الجمعة هو ملتقى الأصدقاء، بل كان يطمئن نفسه أنه ربما انشغل باللهو مع أصدقائه ونسي الوقت وهاتفه أيضًا.

انتقل القلق إلى قلب معاذ أيضًا، لكنه يعلم أنه سيجده في المكان الوحيد الذي يلجأ إليه، وسرعان ما تحرك إلى هناك، لكن الظلام الدامس لم يمنحه فرصة جيدة للبحث، وعاد فاقدًا للأمل.

دب القلق والخوف في منزل الدسوقي، ليس من عادتهم أن

يبيت أحدهم خارج المنزل... المنزل الكبير الذي يحيط الجميع وكما يضمهم ليلًا عند غياب الشمس يضمهم أيضًا في كل المحن والأزمات.

حاولت نورا وباقي البنات الوصول إلى أمل زوجة محسن، فربما يكون قرر السفر لهما فجأة، لكن هاتفها كان مغلقًا طوال الليل...

ظلوا جميعًا في بهو المنزل مجتمعين قلقين أن يكون أصابه مكروهًا أثناء تبدل الطقس بهذا الشكل العنيف.. داعين المولى أن تسرع الشمس في الشروق حتى يستطيعوا البحث عنه مرة أخرى.

***

شهقت ليلة عندما وجدت الغرفة خالية وفيروز ليست بها، خرجت مسرعة تطرق باب غرفة إلياس، لكنه لم يجب، ظنت لوهلة أن كل ما حدث كان في خيالها المريض ولا وجود لإلياس ولا للفتاة خصوصًا بعدما أخبرها أحد العمال أن نزيل هذه الغرفة قد رحل، وأن عليها الرحيل هي أيضًا، اضطربت ليلة ولم تعلم ماذا يجب عليها أن تفعل! طلبت من العامل أن يمهلها نصف ساعة فقط ترتب حالها فوافق.. أخذت حمامًا سريعًا محاولة بائسة منها لاستعادة نشاطها واستيعابها... تجهزت للمغادرة، لكنها قررت أن تأخذ قهوتها في البانسيون علَّها تستطيع فَهم أي شيء يحدث، وبعد أن انتهت من القهوة لمحت إلياس وفيروز يعبرون الطريق...

صاحت بهما وأسرعت نحوهما..

- أكيد مش هنهرب ونسيبك يعني!

- هو ايه اللي حصل أنا مش فاهمة حاجة؟!

- فيروز صحيت بدري وكانت زهقانة فخرجت البلكونة، وبالصدفة كنت في البلكونة أنا كمان، فقولتلها تخرج من الباب ونزلنا نجيب فطار من برا عشان كنت حاجز هنا ليلة واحدة بس.

- أنا آسفة..

- عادي ولا يهمك.

- لا أنا لسه ماكلمتش الجملة.. أنا آسفة بس أنا جعانة جدًّا.. جبتوا فطار إيه؟

ضحكت فيروز بصوت عالٍ وهي تنظر لها مشاكسة.

- بتضحكِ عليَّ يا ييوزة؟

- آه.

جلسوا على أحد الأرصفة يأكلون بنهم شديدٍ بينما قال إلياس: أنا حاولت استفسر منها على أي حاجة، أَو أعرف اسم بلدها أو حتى اسمها ثلاثي بس معرفتش.. يا إما هي من بلد قريبة من اسكندرية أو نزلت من القطر اللي كان جاي من أسوان.

- أســـــوان!

هتفت بها فيروز بحماسة شديدة..!

- أنتِ تعرفي أسوان يا فيروز؟

- أســـــــوان!

- يعني أنتِ كنتِ هناك؟

- روح هنـــاك آه.

- وبعدين يا إلياس... هنعمل إيه؟!

- هنستنى مراجعة كاميرات المحطة وهنحاول نصورها وننزل صورتها على فيس بوك ممكن حد يتعرف عليها، ولو ماوصلناش لحاجة هنروح على أسوان بقى.

- أســـــــوان!

- واضح إن البنت متعلقة بأسوان! يعني ممكن جدًّا تكون من هناك أو كانت رايحة هناك.. أنا رأيي إننا نحجز في أول قطر ونروح على هناك ونتابع معاهم بالتليفون لو وصلوا لحاجة هنا أو على فيس بوك.

- طيب.. نخلص فطار ونشوف مواعيد القطر.

تذكرت ليلة أن نقودها لن تكفي شيئًا، فشعرت بالحرج من

جديد والتوتر وحاولت قول شيئًا، لكن إلياس سبقها قائلًا: أنا قولت إن في رقبتي طفلتين ولازم ارجعهم لأهاليهم.. أنتِ مسؤولة مني زيك زي يا فيروز بالظبط.

قالها بحزم فلم تعلق ليلة، لكنها اكتفت بابتسامة عذبة تحمل الكثير من المعاني،

تعلقت عينا إلياس بهذه الابتسامة وشعر بأنها تغزو قلبه، فارتبك بشدة وتشاغل عنها بالطعام ومداعبة فيروز.. فيروز التي كانت تغني منسجمة وتردد كلمة "أســـوان ".

***

خرج الدسوقي ومعه سالم وحسن وعلي أحفاده من حسين، بينما تحرك حسين ومعاذ ومؤمن و طاهر أولاد محروسة، بحثوا عنه في كل مكان في القرية، لكن معاذ كان على يقين أنه بالمزرعة؛ لذا طلب منهم أن يذهبوا هناك مرة ثانية علَّ الظلام خدعه أمس.

اتجهوا إلى المزرعة ولاحظ معاذ ذلك الممر الضيق البعيد، اتجه إليه وقلبه يخفق، وعندما اقترب هتف بقوة يصيح باسم محسن، هرول إليه حسين ومؤمن وطاهر، وجدوا محسن مطروح أرضًا فاقدًا للوعي..

صرخ معاذ قائلًا: بلاش حد يشيله ممكن يكون فيه كسر.. أنا

هكلم الإسعاف حالًا.. وحد يكلم جدي الدسوقي يعرفهم إننا لاقيناه.

وسرعان ما تم نقل محسن إلى مشفى المركز وسيطر القلق والخوف عليهم جميعًا.

بعد وفاة سمية قَسَّم الدسوقي كل شيء بين أولاده.. البيت الكبير قُسِّم على هيئة أربع طوابق.. طابق لسالم وزوجته إلهام ووحيدهما محسن، طابق لحسين وزوجته هدى و أولادهما إسلام و معتز ومنى، وطابق لفتحية وزوجها إسماعيل وبناتهما نورا و نوارة، والطابق الأخير من نصيب محروسة وزوجها عطية وولديهما مؤمن وطاهر .

بينما ظل بهو المنزل من نصيبهم جميعًا فيه يجتمعون على المائدة ويتسامرون ويشاهدون التلفاز.

كان مخطط الدسوقي أن يظل البيت عامرًا يضج بالحياة وصوت الأطفال وضحكات الكبار ،حتى وإن كبر أحفاده يعمرون المنزل من جديد بأولادهم، فلا تنقطع عنه الحياة، ورُغم ما لاقوه من متاعب في بداية زواج محروسة و فتحية ورفض أزواجهم لفكرة وجودهم في منزل والد زوجاتهم، إلا إن الدسوقي استطاع حل تلك المشكلة البسيطة؛ لذا اعتادوا جميعًا على وجودهم معًا...

جميع الأحفاد إخوة لا يفرقهم شيء.

كان مصاب محسن أمر جلل.. منع الطبيب تواجدهم جميعًا في المشفى، فلا فائدة من ذلك، لقد كان اصطدام محسن بالأرض قويًّا وعلى إثر خبطة رأسه أصيب بنزيف على المخ؛ لذا تم تحويله على العمليات فورًا، ونظرًا لتأخر الوصول إليه أصبح الأمر خطيرًا جدًّا.

لأول مرة يبكي الدسوقي بدموع ظاهرة وهو يعي جيدًا كل ما يقوله الطبيب، يعلم أن حفيده المقرب قد لا يفيق أبدًا حتى وإن تمت السيطرة على النزيف ستظل هناك آثار جانبية خطيرة.

أمر حسين إسلام ومعتز أن يأخذوا الجميع ويعودوا إلى البيت، فأصر الدسوقي أن يرحل حسين هو الآخر.

- روح معاهم يا حاج وأنا هطمنك لو في أي جديد!

- أنا مش هتحرك من هنا.. خُدهم يا حسين وروح طمن اللي في البيت!

- خلاص يا عم حسين روح معاهم وأنا هفضل معاه أنا وعمي سالم.

- لو حصل أي حاجة طمني بالتليفون يا معاذ.

- حاضر.

أصيب سالم بحالة من السكوت التام، فقط كان جالسًا أرضًا مستندًا برأسه على الحائط.. غارقًا في أفكاره التي لم ترحمه.

– عمي سالم.. اتكلم معانا طيب!

– محسن كان بيكرهني يا معاذ؟

قالها بنبرة منكسرة وصوت متهدج باكٍ..

– ازاي بس يا عم سالم.. هو في حد بيكره أبوه؟!

– بس أنا كنت قاسي معاه أوي!

– عشان بتحبه وخايف على مصلحته مكنش قصدك ليه غير كل الخير!

– يا ترى هيسامحني ولا لا؟!

تابع الدسوقي الحوار عن بعد دون أن يتدخل، اختلطت المشاعر في قلبه، أيعاتب سالم على قسوته مع ولده الوحيد؟! وماذا عنه؟! ألم يمر بنفس التجربة مع سمية!

اعتصر قلبه عند وصوله إلى هذه النقطة، فهو لا يريد لسالم أن يعيش نفس التجربة ولا يريد أن يحرم بأحب أحفاده إلى قلبه، فقط ظل يتمتم داعيًا المولى عز وجل أن يرأف بهم وبمحسن.

مرَّت الساعات وهم على حالهم بالمشفى حتى خرج أحد

الأطباء أخيرًا وعلى وجهه علامات الإرهاق الشديد والحزن.. تقدم معاذ نحوه وبادره بالسؤال..

- ها يا دكتور طمنًّا!

- للأسف كان نفسي اطمنكوا، لكن وصول الحالة متأخر بيضعف الأمل.. احنا قدرنا نوقف النزيف، لكن تأثيره كان كبير على خلايا المخ..

- يعني إيه يا دكتور؟!

- يعني هو بين إيدين ربنا يا حاج ومفيش حاجة بعيدة عليه.. ادعوله بس!

قالها ورحل سريعًا، فقد كان في أمس الحاجة إلى الراحة، بينما تركهم وسط ذهولهم وخوفهم، استجمع معاذ شجاعته وقال: لو سمحت يا جدي خد عم سالم وارجعوا البيت...!

وجودنا هنا مفيش منه فايدة دلوقتي..

- أنا مش هتحرك من هنا!

- يا عم سالم الفترة الجاية هتبقى صعبة علينا كلنا، محسن لما يفوق - إن شاء الله - هيبقى محتاجنا كلنا.. لازم ترجعوا دلوقتي وترتاحوا ولو حصل أي جديد أنا هبلغكوا.

اقتنع الدسوقي رُغم الألم الذي يعتصر قلبه، وربت على كتف

سالم وأخذه ورحل، وعندما تأكد معاذ من رحيلهما اتجه لغرفة العناية الموجود بها محسن، وظل ينظر إليه من خلف الزجاج وهو يبكي بمرارة حتى ارتفع صوته.

بينما اتخذ إلياس وليلة قرارهما الأخير بشأن السفر إلى أسوان مع متابعة آخر تطورات الفيس بوك، وإن تعرف أحدٌ على فيروز أم لا.

الفصل الثالث

بمساعدة "الفيزا" البنكية استطاع إلياس أن يؤمن هذه الرحلة ماديًّا، فابتاع حقيبة مناسبة تكفي الطعام والمشروبات وبعض الأدوات الخاصة ببطارية الهاتف المحمول، وفي تلك الأثناء لاحظ وقوف ليلة أمام متجر متعلقة عيناها أمام مفكرة زرقاء اللون يتوسطها رسمة يدوية لشاطئ البحر، ويظهر بها تدرج درجات اللون الأزرق، وقد دون عليها بخط مائل غاية في الروعة:

"الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق... وأنا ما عندي تجربة في الحب ولا عندي زورق. "

ابتسم إلياس لنظراتها الطفولية نحو المفكرة، وطلب منها أن تأخذ فيروز إلى المتجر المجاور لتحضر لها ما تحب من حلوى، فوافقت دون تعقيب، بينما اتجه هو ناحية المتجر الذي به المفكرة.

– ها؟ اشتريتِ كل اللي في نفسك يا فيروز؟

– آه.

– مبسوطة؟

– آه.

– متأكدة إن ماما في أسوان؟

– آه.

ضحكا على طريقتها في الكلام وكأنها سيدة كبيرة، بينما التفت إلياس إلى ليلة

قائلًا: أنا قولت إن أنت وفيروز مسؤولين مني لحد ما رحلتنا تخلص اتفضلي!

نظرت له مندهشة وهي ترى ما بيده: إيه دا؟

– واضح إنك بتحبي اللون الأزرق!

– أنا بعشقه.. لونها فعلًا خطفني زي ما بيعمل البحر دايمًا... هو كان باين عليَّ أوي؟

– كنتِ زي الطفلة وأنتِ بتبصي عليها..

– مش عارفة أشكرك ازاي..!

– بس أنا عارف.

– ازاي؟

– اكتبي فيها أي حاجة جواكِ.. كأنك اتخلصتِ من حمل ورميتيه في البحر.. واللي بيرمي حاجة في البحر ماينفعش يجيبها تاني.. صح؟

- صح.
- يبقى اتفقنا.

ابتسمت ليلة بعذوبة، فلاحظ إلياس انكماش جفنيها واطمأن قلبه لصدق الابتسامة.

وصل القطار واستعدوا للرحيل.. تأكد إلياس من استغراق فيروز في اللعب بهاتفه المحمول، بينما انشغلت ليلة بتدوين أول ورقة في المفكرة، وبعد قليل أعطته فيروز الهاتف واحتضنته ونامت.

وما أن غفت ليلة مستندة برأسها على نافذة القطار حتى استطاع قراءة ما دونته في المفكرة التي أهداها إياها..

" ذكرياتي في هذه المرحلة ارتبطت بشكل رئيسي على الصور... المشاهد... ربما لا أذكر موقف بعينه، لكني أذكر ما رأيته، كنت أحب التأمل والشرود ولم أكن يومًا من هؤلاء الأطفال المزعجين المشاغبين، كنت أميل إلى الهدوء والحكمة والنظر إلى كل الأشياء دون الإفصاح عن ما يدور بخاطري؛ لذا ارتبطت بالعديد من الأماكن دون الأشخاص.

أذكر تلك الوردة المعجزة التي أزهرت في حديقة جدتي كانت أوراقها تشبه "قماش القطيفة" لونها من الخارج أحمر ومن الداخل أبيض أثارت انتباهي بشدة دونًا عن بقية أزهار الحديقة، تقع عيني

دومًا على الشيء الغريب المختلف... أنبهر به وأتمنى في قرارة نفسي أن أكون مثله، أحببت تلك الوردة المعجزة كما أسميتها في طفولتي وتعلقت بها بشدة؛ لذا لم تظهر ثانية في الحديقة أو في حياتي، كشأن معظم الأشياء التي أتعلق بها!"

أعاد إلياس المفكرة واضعًا إيَّاها بين يديها، واستند برأسه على ظهر المقعد مفكرًا في كل ما حدث له بداية من رحيل والده، والذي كان بمثابة اللعنة التي حلَّت على حياته، فمن بعد رحيله انقلب كل شيء على رأسه.

تجسدت صورة والدته أمامه وهي تحكي له عن قصة الحب الأسطورية التي جمعتها بوالده، فقد كانت هي فنانة في مقتبل العمر، لكن لوحاتها كانت تنم عن موهبة فذة، وبعد اشتراكها في معارض عديدة ونجاحها تم ترشيحها لمعرض يعد من أشهر المعارض العالمية، والذي من المقرر إقامته في هذا العام على أرض لبنان.. فرحت والدته بهذا الأمر كثيرًا، وعكفت على اللوحات كي تنتج أفضل ما لديها، وبالفعل سافرت وأقيم المعرض، وهنا كانت الأقدار تخبئ لها مفاجأة أخرى، فقد كان منظم المعرض هو يونس - والد إلياس- وعائلته نظرًا لولعهم الشديد بالفن واللوحات.. عائلة أرستقراطية أصيلة، وقد وقع يونس في حب مي منذ وصولها.

أعجب بتلك الفتاة الشابة الطموحة التي كرَّست حياتها لما تحبه

فقط تمامًا كما فعلت عائلته، فتوقع يونس أن تسير الأمور هكذا بكل بساطة، لكنه عندما حاول بدأ الحديث معهم فوجئ برفض تام وقاطع، فموهبة مي لا خلاف عليها، لكن أين عائلتها!

لقد تبرأت عائلة مي منها بعدها أعلنت حبها وولعها الشديد بالفن ورفضها للزواج بالطرق التقليدية التي فرضت عليها حتى كثرت الأقاويل عنها، فلم تجد العائلة مفرًا غير أن تتبرأ منها تمامًا، واستغلت مي هذه الفرصة السانحة وكرَّست حياتها للفن فقط، بعدما استطاعت تأمين حياتها ماديًّا بشكل مؤقت بما حصدته من وظيفتها المملة التي استمرت بها لسنوات عديدة.

لكنها أعجبت بيونس ورأت فيه الشريك الحقيقي الذي تستطيع إهداءه ما تبقى من عمرها، وعندما لاحظت أنه يبادلها نفس الشعور استسلم قلبها لـسيل المشاعر الذي كان يقاومه من قبل، فغرقت فيه وبه.

ثارت عائلة يونس على تلك الفتاة "الغجرية" كما أطلقوا عليها التي جاءت تنتزع ابنهما، حاربوا تلك القصة بكل ما أوتوا من قوة وضعف، وكانت نتيجة ذلك هو قوة العلاقة بين يونس ومي وكأنها علاقة فولاذية، حتى تزوجا وقررا الاستقرار بباريس بعيدًا عن الأهل، وقرروا إقامة معرض شهري خاص بهم، ولكنهم فوجئوا بفشل ذريع ونفور جميع محبي الفن منهم.

حاولوا مرارًا وتكرارًا وفي كل مرة يزداد الأمر سوءًا، وفي تلك الأثناء وُلِد إلياس، يأس يونس بعد تراكم العديد من اللوحات حوله في منزله ومعرضه، ومع ولادة إلياس وزيادة المسؤوليات أوشك رصيده البنكي على النفاذ..

قرر أن يترك الفن ويبحث عن وظيفة مناسبة، وساعدته مي بكل جهدها..

استمرت تلك المحاولات تسع سنوات كاملة، تبدل فيهم يونس كثيرًا، فأصبح أكثر حزنًا وقد احتلت بعض التجاعيد وجهه.. اختفت ابتسامته وروحه المرحة، لكن حبه لـمي كان الشيء الوحيد الثابت على مدار حياته.

تنهد إلياس بقوة وهو يمسح بيده سريعًا بعض العبرات العنيدة التي هزمته..

استيقظت ليلة وقد لاحظته، فوجدت نفسها بلا وعي تربت على يديه دون أن تقول شيئًا وكأنها تعرف ما به.

شعر بكهرباء لذيذة تعتريه إثر لمسة يديها أنسته كل ما كان يفكر به، ابتسم هو فشعرت بحرج شديد وسحبت يديها سريعًا وحاولت التظاهر بالنوم.

- يا سلام... نايمة أنتِ كدا يعني!

تزايد حرجها، وقالت بخفوت: آه نايمة أصلًا.

- طيب أنا دلوقتي هشاركك حاجة خاصة بيَّا جدًّا..

نظرت له باستفهام، فقال بعدما أخرج ورقة مطوية بعناية شديدة من محفظته: دي آخر رسالة كتبتها أمي لأبويا قبل ما تمشي وتروحله..

أنا عمري ما قدرت أقرأها لوحدي عشان عارف إن كان بينهم قصة حب عظيمة، لكن أنا عاوز أقرأها دلوقتي معاكِ... ممكن؟

- آه طبعًا.. أكيد.

" أيا شمسي التي غربت، فاستحالت حياتي إلى عتمة أبدية...

قد ودعتك وداعًا يليق بك، فذرفت كل ما في عيني من عبرات حتى جفت مقلتي، فنزف قلبي دمًّا...

لكنه مازال يأمل في لقاء آخر قريب، و يا للمفارقة العجيبة!

قلبي الذي سأم كل شيء بل وزهد الحياة بأكملها ما زال يستطيع التمني والتطلع...

أتجد في ذلك تناقضًا؟!

أراه كل العقل وربي، فأملي الوحيد في الحياة الآن هو تركها.

كنت آظن أن الحياة ستتوقف لرحيلك، فكيف تستمر وقد

غابت الشمس؟!

ألم يخبرونا أن غياب الشمس سيتسبب في دمار العالم أجمع!

هل كانت كذبة سخيفة كباقي أكذوبات الطفولة أم أنا الحمقاء الوحيدة على سطح الأرض؟

ألم أكن أخبرك دومًا أنك شمسي... شمسي أنا فقط.. كنت كزهرة تباع الشمس التي تزهر بشروقها وتذبل بغروبها... أنا أذبل، لكنني ما زلت على قيد الحياة... أعاني ذبولي وحيدة...

أرى أوراقي وهي تتساقط مني...

أراني وأنا مجرد ورقة هشة تذروها الرياح...

كيف سأزهر مرة أخرى يا شمسي وقد رحلت شمسي؟

أتزهر زهرة الشمس في الظلام!

أتظلم في ليل سرمدي! "

تهدج صوت إلياس بعدما انتهى من قراءة آخر رسالة رثاء كتبتها والدته، وقد تزاحمت العبرات في عينيه، وعندما نظر إلى ليلة وجدها تبكي في صمت وهي تربت على يديه، فسمح لعبراته بالسقوط، وسمح لرأسه الميل على كتف ليلة،

فأعلن قلبه أنه الآخر قد سقط وقد سكنت رُوحه برُوحها.

***

كان الحال في منزل الدسوقي في أقصى درجات الألم والحزن، عمَّ الصمت أرجاء المنزل الذي كان يضج بالحياة والبهجة وصيحات الأطفال، لزمت كل أسرة الطابق الخاص بها، وأصبح تجمُّعهم على المائدة صامتًا حزينًا، والغريب أنهم لم يفكروا في أمر أمل زوجة محسن وكأنها اللعنة التي حلَّت على هذا البيت، أكلوا بلا شهية وانصرف كل منهم إلى غرفته مرة أخرى.

شعرت نورا بألم مضاعف، فمحسن بمثابة أخ لها كما أنه صديق معاذ الوحيد، تعلم مدى الألم الذي يشعر به معاذ وتريد أن تكون بجواره الآن، ترددت كثيرًا لكنها حسمت أمرها وذهبت إلى غرفة جدها.

- مين بيخبط؟

- أنا نورا يا جدي.

- تعالي يابنتي ادخلي!

كانت تسير باستحياء وتردد لا تعلم ماذا تقول وقد تاهت الكلمات من فمها.

- عاوزة تقولي حاجة يا نورا؟

- مممممم بصراحة يا جدي.. يعني.. كنت عاوزة بس أطلب..

لو ينفع يعني...

– عاوزة تيجي معانا المستشفى صح؟

– أيوة يا جدي من فضلك ممكن؟

– آه يا حبيبتي ممكن أنت لازم تطمني عليه وتقفي جمبه بردو..

المحنة صعبة أوي على الكل.

ارتبكت نورا بعدما فَهم جدها الغرض الحقيقي من زيارتها ولم تجد ردًّا مناسبًا، ففهم الجد.

– يلا يابنتي اطلعي البسي وأنا هكلم أبوكِ أقوله.

– شكرًا يا جدي.. ربنا يخليك لينا!

قبلت يديه وانصرفت مسرعة.

وبعد دقائق قليلة وصلت نورا وسالم والدسوقي المشفى..

أسرع معاذ إليهم وهو مندهش من وجود نورا الذي كان يحتاج إليه بشدة، فانصرف الجد وسالم إلى غرفة محسن..

– ازيك يا معاذ؟

– تعبان... تعبان أوي يا نورا وخايف أوي...

– أنا معاك.

ترك معاذ السبيل لمشاعره ولم يتمالك نفسه أمامها، دمعت عيناه بشدة وهو يقول بتلعثم: محسن أكتر من صاحبي.. حياتي كلها كانت معاه... هو السبب إننا مع بعض دلوقتي..

من امبارح للنهاردة راجعت شريط حياتي كله ملقتش فيه ولا مشهد من غيره.. حاسس بالذنب عشان سبته يمشي لوحده بعد الصلاة.. كان المفروض أفضل معاه... هو عمره ما سابني أبدًا.. لو كنت معاه مكنش هيحصله كدا.. أنا السبب يا نورا.. أنا السبب.

انفجر معاذ باكيًا وهو جالس أرضًا عاجزًا عن فعل أي شيء، وكأن حضور نورا كان بمثابة وصول أم لطفلها التائه الذي انهار باكيًا بعد شعوره بالأمان لعودة أمه، وقد ظن أنه لن يفتقد هذا الشعور إلى الأبد.

جلست نورا أرضًا بجواره تحاول تهدأته وقلبها يعتصر ألمًا خوفًا على محسن من فكرة فقدانه في حد ذاتها وتأثير وقع هذا على معاذ.

- نورا.. خليكِ جمبي!

- أنا هفضل جمبك يا معاذ على طول.. أوعدك.. أي صعب هيعدي طول ماحنا بنعديه سوا...

قالتها بصدق استشعره معاذ، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يضمها إلى صدره ويتشبث بها بقوة، صدمت نورا برد فعله، لكنها لم تقوَ

على مقاومته بعدما شعرت بدقات قلبه وهي ترجوها أن تبقى في ضمته إلى الأبد، فأراحت رأسها على كتفه وهي تضمه بيدها إليها.

لطالما تخيلت كيف ستكون أول ضمة ستجمعها بمعاذ وكيف سيكون تأثيرها عليهما، لطالما قرأت عن أهمية "الحضن" في أية علاقة وعن مدى تأثيره الفعال، وباتت تتخيل كيف سيكون ذلك الموقف غاية الرومانسية...

لم تتوقع أبدًا أن يحدث الآن في هذا المكان، ولم تشعر بأن هناك عينين تشاهدهما... عين الدسوقي... جدها...

استشاط الدسوقي غضبًا وكاد يسرع إليهما ويعنفهما، لكن في اللحظة الأخيرة رأى سمية.

أُصيب بصدمةٍ كاملةٍ شلَّت حركته تمامًا، وظل جامدًا شاخصًا بصره تجاهها..

كيف يراها وقد ماتت منذ زمن؟!

توقف الزمن عدة ثوانٍ وهو هكذا، حتى استطاع تحريك قدميه واتجه ناحيتها..

- سمية!

- عجِّل بكتب كتابهم.. الحب أقوى من كل شيء.. الحب هو اللي كسر جبروتك، وقادر يكسر أي قاعدة..

الفرح والحزن مش ضد بعض.. الفرح بيكسر حدة الحزن، والحزن شعرة ملح بتكسر دلاعة الفرح..

الأكل اللي ناقص ملح دلع وملوش طعم... عجِّل بكتب كتابهم وزود المحبين اتنين فتزيد محبتك في قلبي بمقدار حبهم وحب كل اللي يحب.

قالتها واختفت كالطيف الخفيف، ظل مشدوهًا، وقد سالت دموعه وهو ينظر في نفس الموضع، انتبهت نورا وسريعًا اتجهت إليه ولحقها معاذ..

- جدي أنت كويس؟

- جدي! ممكن تروح ترتاح!

- ممكن ترد علينا؟ أنت كويس؟ طب بتبص فين؟

حاول أن يتمالك نفسه، لكنه فشل وسقط مغشيًا عليه..

صرخت نورا وصاح معاذ كي يحضر أحد من الأطباء، وسريعًا تم نقله إلى غرفة مختصة لإجراء كافة الفحوصات..

- خير يا دكتور في إيه؟

- اهدوا يا جماعة مفيش أي حاجة.. الحج بس أجهد نفسه جدًّا ولازم يرتاح..

ماتنسوش السن والقلق والتوتر دا غلط عليه!

– طب إيه المطلوب دلوقتي؟

– مش مطلوب غير الراحة التامة.. ياريت ترجعوه البيت.. وجودكوا هنا ملوش لازمة لأن أستاذ محسن مش حاسس بوجودكوا، وصدقوني أول ما يحصل جديد هبلغكوا عشان تيجوا..

من فضلكوا يا جماعة أنتوا كدا بتأذوا نفسكوا..

***

غفت ليلة وهي ممسكة بيدي إلياس، بينما هو قد استكان ورأسه على كتفها وذهب في نوم عميق.. يبدوان كحبيبين جمعتهما الأقدار بعد عناء.

استيقظت فيروز هذه الفتاة التي كانت حلقة الوصل بينهما، وعلى عكس المتوقع منها وهي تائهة من أهلها ويجب أن تكون خائفة وقلقة، لكنها تعلقت بإلياس وليلة وكأنهما كل عالمها.

نظرت إليهما وهما نائمان هكذا ولاحت ابتسامة صغيرة حانية على وجهها وقد أعجبها المشهد.

ظلت تتأملهما عدة دقائق بينما لاح في عقلها بعض المشاهد الأخرى القاسية..

صياح وصوت عالٍ يصل حد الضرب أحيانًا، لم ترَ مشهدًا حالمًا

كالذي تراه الآن من قبل.

بدأت فيروز في البكاء وهي تستحضر مشهدًا بعينه وقد زاد صوت بكائها، استيقظت ليلة فزعة وتبعها إلياس على إثر صوت فيروز..

ارتبك كل منهم، لكنهما تشاغلا بفيروز، فقال إلياس بصوت هادئ: بتعيطي ليه يا فيروزة؟

- يوزة؟

- مش أنتِ قولتيلنا أول مرة إن اسمك فيروزة؟

- آه.

- طيب بتعيطي ليه بقى؟

سكتت فيروز، فقالت ليلة: طيب جوعتِ أعملك ساندوتش؟

- آه يا ليلة لو سمحتِ اعمليلنا ساندويتشات "حواوة"!

قالها بطفولة مقلدًا فيروز التي ضحكت بشدة..

- شكلك بتعرف تتعامل مع الأطفال كويس!

- بحبهم أوي... تعرفي إن طول عمري كنت بحلم يكون عندي أخ أو أخت!

- أنت ملكش إخوات أصغر منك؟

- ولا أكبر مني..

- أنـــــا.

قالتها فيروز بحماسة وهي تحتضن إلياس، فاستطاعت بهذا الفعل الصغير أن تسكن قلبه إلى الأبد.

- و أنتِ عندك أخوات؟

- أيون.

قالتها فيروز بفخر، بينما إلياس يوجه سؤاله لـليلة.

- بجد؟ طب اسمهم إيه؟

- أنت بث.

ضحكت ليلة وهي تربت على شعرها وتقول: طب وأنا يا يوزة؟

- امممم أختي ماشي.

- متشكرة يا فيروزة.. اتفضلي الساندويتش!

وكأن الحلاوة هي المفتاح السحري الذي يشغل فيروز تمامًا ويأخذ كل انتباهها، التفت إلياس إلى ليلة وهو يقول: عندك أخوات؟

- آه!

قالتها بضجر وبدا عل ملامحها الحزن والحنق.

- في الحالة دي أنا هضطر أسكت عشان مش ضامن ردك بصراحة.

- تقصد إيه؟

- أقصد إنك كتومة جدًّا و دا عادي وطبيعي، لكن بترمي ردود كدا مش ماشية مع ملامحك خالص بصراحة.

- أنا آسفة!

قالتها بحرج شديد، فقال إلياس: أنت ممكن تحكيلي على فكرة... الطريق أدامنا لسه طويل جدًّا، وبعدين مش أنا حكيتلك حكاية البنت إللى طلبت تحكي لبنت ماتعرفهاش في المواصلات و...

قاطعته ليلة قائلة: لو كنت مكانها من سنة كنت هعمل كدا.

ذُهِل إلياس، فقالت: كنت وقتها بمر بظروف صعبة جدًّا والدنيا كلها كانت ضدي..

كلها بالمعنى الحرفي، فمكنش هيبقى أدامي غير كدا وإلا كنت هنفجر.

أشفق عليها وهو يجد تشابهًا كبيرًا بينها وبين فيروز، فإن كانت فيروز تائهة من والديها وهما مصدر أمانها، فربما ليلة تائهة أيضًا من

مصدر أمانها.

ظلت ليلة صامتة، واحترم إلياس هذا الصمت واكتفى ببثها الطمأنينة بنظرات عينيه.

– وقتها كانت بدايات مشاكل جوازي.. كنت فاكرة إن دي نهاية العالم خالص وإني محتاجة أتكلم مع أي حد، لكن دلوقتي عرفت إن اللي كنت فيه دا ولا حاجه من اللي حصلي بعد كدا.

لم يعلق إلياس، لكن حثها على تكملة الحديث بعينيه، وساعدته فيروز التي انتبهت لحديث ليلة بكل جوارحها رُغم عدم فَهمها للأمر برمته، فكان ذلك دافعًا قويًّا لـليلة كي تتحدث وتخرج ما في جعبتها.

– أنا من عيلة غنية جدًّا.. للأسف يعني ليا أخين أكبر مني و أخ أصغر مني، بابايا ومامتي انفصلوا بعد ولادة أخويا بأيام.. الحياة بينهم كانت مستحيلة.. بابا كان حنين أوي أوي وعمره ما رفضلي طلب..

كان مالي حياتي معنويًّا وماديًّا ومعوضني عن غياب أمي اللي عمرها ما اهتمت تعرفني..

وعلى أد حنية أبويا عليّ إلا إنه كان قاسي جدًّا مع أخواتي..

كان دايمًا يقول إنهم شبه أمي في كل حاجة.. في جشعها وقسوة

قلبها وأنانيتها..

كان بيعاقبهم دايماً وكأن كل ذنبهم إنهم شبهها، لكن في المقابل كان حرفيًّا بيغرقني في حنانه.. وكانت هي دي اللعنة اللي دمرتلي حياتي.

صمتت ليلة وقد أغرورقت عيناها بالدموع.. اقتربت منها فيروز وهي تضم شفتيها استعداد للبكاء، واحتضنت ليلة وهي تربت على كفيها بيديها الصغيرتين.

تشبثت ليلة بفيروز وكأنها فتاة كبيرة تحتضن طفلة وليس العكس، بينما إلياس التزم الصمت لكن ساد الضجيج قلبه.

ظل الوضع هكذا عدة دقائق وشعر إلياس بمزيج من مشاعر مختلفة.. ما بين قلة الحيلة والعطف ورغبته في ضمها لصدره وهو يعدها أنها ستكون بأمان بين ضلوعه، فلن يستطيع أحد أن يقترب منها، لكنه توقف فجأة وهو مستغرق في أحلامه الوردية على كلمتها الأولى التي بدأت بها الحديث ألا وهي "وقتها كانت بدايات مشاكل جوازي."

أهي متزوجة؟!

صدمته الفكرة وأثارت غضبه الشديد، لكنه نظر إلى يديها فلم يجد خاتم الزواج، فهدأ قليلًا.. لكن تفكيره في هذا الأمر عكر

صفو هدوء قلبه، وكأنه بمثابة إلقاء حجر في بركة مياه راكدة.

***

مرَّ بعض الوقت والدسوقي منفردًا بنفسه في غرفته يعيد التفكير في كلام سمية، والدموع تنهمر من عينيه حزنًا على فراقها..

لم يفكر لحظة أن كل ما حدث كان مجرد هلوسة أصيب بها من فرط القلق والإجهاد وشوقه الشديد إليها.

كان يفكر في كلامها كما لو كانت حية بالفعل، لكنها بالفعل حية، فحضورها في قلبه ما زال أقوى من حضور أغلب الأحياء.

أخيرًا عزم الدسوقي على قراره، تنفس بعمق وهو يستعد كي يخبر به أعضاء عائلته.

- نوارة.. يا نوارة!

- أيـوة يا جدي نعم!

- عاوزك تبلغي كل البيت إني عاوزهم كلهم على السفرة بعد تلت ساعة بالظبط!

- حاضر يا جدي هقولهم.

انصرفت نوارة وهاتف الدسوقي معاذ وطلب منه نفس الطلب وأن يحضر معه والده، ومن ثم أغلق هاتفه واستعد لما سيحدث بعد

قليل...

- خير يا حاج.. جمعتنا ليه؟

- أنا أخدت قرار.. قرار نهائي غير قابل للنقاش من أي حد و اللي هقول عليه هيتنفذ.

- اؤمر يا جدي!

- كتب كتاب نورا ومعاذ بكرة بعد صلاة العصر.. أنا عارف إننا في محنة واختبار صعب، لكن في حاجة لازم تفهموها كويس أوي ، الفرح والحزن مش ضد بعض.. الفرح والحزن بيكملوا بعض في حياة أي حد فينا.. مش معنى إن الواحد في قلبه حزن إنه مش هيعرف يفرح، أو لو هو فرحان بحاجة فهو كدا مسح الحزن اللي في قلبه.. احنا هنكتب الكتاب ولما محسن يقوم بالسلامة إن شاء الله نبقا نحتفل ونعمل كل اللي هم عاوزينه...

صمت الجميع ولم يستطع أحدهم أن يعارضه وهم يعلمون أن أمر الدسوقي كالسيف على رقابهم جميعًا..

- ماسمعتش ردكوا يعني؟

- اللي تشوفه يا حج.

قالها والد نورا ووالد معاذ بصوت هادئ..

- تقدروا تتفضلوا.. ونورا ومعاذ عاوزكوا معايا.

- أمرك يا جدي.

انصرفوا جميعا واجمين، بينما تحرك الدسوقي ممسكًا بيد نورا وبالأخرى معاذ وخرج بهم من الباب الرئيسي متجهًا إلى ركن خاص به في حديقة المنزل.

- المكان دا أكتر مكان قريب لقلبي وعشان كدا اخترت إننا نقعد فيه.. الجزء دا من الجنينة سمية - الله يرحمها - هي اللي كانت بتهتم بيه وبترعاه... كل شجرة هنا هي اللي زرعتها بإيدها، ولأنها عرفت ازاي تهتم بيها وترويها فضل عمرها طويل، على رغم إن باقي الجنينة زرعها مات بدري، لكن سمية كانت فاهمة احتياج الزرع المختلف وقدرت تقدمله الرعاية الكاملة اللي تحافظ على عمره.. مش مجرد شوية ميه ولا سماد هترميه وخلاص... ولأنها قدرت تعمل كدا في علاقتها بيا عاشت هي وأنا اللي مت من يوم ما ماتت.

- ربنا يديك الصحة يا جدي ويباركلنا في عمرك.

- أنا بقول الكلام دا عشان مش عاوز أي حد فيكوا يغلط غلطتي..

أنا شوفت في عنيكوا بذرة حب ومتأكد إنكوا هتقدروا تهتموا بيها، وتقدموها الرعاية الصح اللي تخليها عايشة زي جنينة سمية..

أنا عجلت بكتب كتابكوا رغم الظروف اللي احنا فيها عشان المحن هي اللي بتقوي رباط الحب، ومع كل محنة هتمروا بيها في حياتكوا يإما هتقوي الرباط لحد ما يبقى فولاذي.. يإما هتضعفه لحد ما يبقى هش..

أنا بس حبيت أحاوطكوا بإطار شرعي، لأن البذرة اللي هترويها بميه فاسدة عمرها ما هتكبر.

دمعت عيناهم وقاما ليحتضنا الدسوقي، فلا يعلم مدى شوق المحب لحبيبه إلا المحب مثله.

عاد معاذ إلى منزله ونورا إلى غرفتها وكلاهما يعاني من مشاعر عديدة متضاربة، رن هاتف نورا، فعلمت أنه معاذ وازدادت دقات قلبها..

- نورا!

- نعم!

- أنا متلخبط أوي... اللي هنعمله دا صح؟

- أنا واثقة إنه صح لأنه قرار جدي...

- طب ما هو بردو اللي وافق على جوازة محسن..

- تقصد إيه؟

- أقصد إن بسبب عقدة الذنب اللي جواه بتخليه يتصرف كدا في أي أمر عاطفي.

- معاذ! أنت بتتكلم عن جدي على فكرة!

- أنا آسف والله مش قصدي، وبعدين مانا كمان بعتبره جدي!

- أنت عاوز إيه يا معاذ؟

- أنا متلخبط يا نورا..

متلخبط وتايه..

ومش عارف ليه قرر القرار دا دلوقتي.. في الظروف دي!

- أنا عارفة ليه...

- عارفة وساكتة! الحقيني الله يخليكِ!

- جدي شافنا.. شافنا في طرقة المستشفى لما... لما...

ارتبكت كلماتها ودق قلب معاذ وهو يتذكر تلك الضمة التي أعادته إلى الحياة، فَرَقَّ صوته وارتعشت كلماته وهو يقول: أهو دا أحسن حاجة في موضوع كتب الكتاب دا على فكرة بقى.

- معـــــاذ!

- يا عيون معاذ والله.

توردت وجنتاها واشتعلت خجلًا ولم تجب..

– أنتِ اتكسفتِ في التليفون! دا واضح إنك هتتعبيني أوي!

– خلاص بقى يا معاذ.

– على أد مانا متلخبط وكان نفسي محسن يكون موجود معانا في اليوم دا، على أد فرحتي اللي مش سيعاني..

يااه أخيرًا!

– ربنا يطمنا عليه ويقوم بالسلامة.. أهو جدي عمل كدا مخصوص عشان نقوي بعض في الفترة دي.

– أنا فعلًا مش عارف لو مكنتيش معايا كنت هستحمل ازاي!

– أنا مستغربة أوي مرات محسن! هي ازاي حتى ماتصلتش عليه!

– اممممم... أنتوا ماعرفتوش تكلموها خالص؟

– موبايلها مقفول على طول ومش معانا رقم حد من أهلها.

صمت معاذ ولم يعلق، فقالت نورا: معاذ! ايه رأيك نروحلها!

– نعم؟ نروحلها فين؟

– نسافرلها بيتها!

يمكن حالة محسن تتحسن لما يحس إنها حواليه هي وبنته!

- مش عارف يا نورا..

مش عارف!

- أنت فاكر مكان بيتهم!

- يعني بالشبه كدا.

- خلاص يبقى لما نروح نزور محسن نسأل الدكتور..

ولو دا هيحسن حالته نسافر لها تاني يوم.

- اللي تشوفيه يا حبيبتي..

- طب يلا ننام بقى عشان عندنا يوم طويل بكرة؟

- تصبحي على خير يا عروستي.

- وأنت من أهل الخير.

أغلقا الهاتف وكلاهما تنتابه مشاعر مختلفة، فنورا سعيدة بأنها أخيرًا ستصبح للذي سكن قلبها، أما معاذ فقد اضطرب كثيرًا عندما عرف نية نورا في السفر

إلى زوجة محسن.

و في المشفى حيث محسن كانت تنتظرهم مفاجأة صادمة، بعدما

خضع محسن لعدة فحوصات وتحاليل طلبها الطبيب المعالج...!

الفصل الرابع

انتهت فيروز من طعامها وظلت تلاعب إلياس وتضاحكه، بينما ليلة استندت برأسها على زجاج النافذة وغرقت في أفكارها..

لم تشعر إلا ويد صغيرة تخبط على يديها، انتبهت ليلة لفيروز التي كانت تحادثها منذ دقائق وهي شاردة الذهن..

- ليل؟

- نعم يا يوزة.

- تعالي معانا!

- فين؟

- هنا!

لم تفهم ليلة ماذا تقصد فيروز، فقالت: هنا فين يا حبيبتي؟

- هنا.. هنـا.

قالتها فيروز وهي تشير إلى موضعها هي وإلياس، فأيضًا لم تفهم ليلة.

- فيروز تقصد إنك تبطلي سرحان وتلعبي معانا.

صاحت فيروز وهي تحتضن إلياس لأنه فَهم مقصدها، بينما اكتفت ليلة ببسمة صغيرة.

- ليلة.. أقولك حاجة اتعلمتها في سن صغير أوي؟

- أيون.

قالتها فيروز بحماس فاردفت ليلة ضاحكة: قول ماشي!

- أبويا لما مات حصلت مشاكل كتيرة أوي في حياتي في وقت كان سني فيه صغير.. المهم بعيدًا عن أي تفاصيل أمي رغم حزنها الشديد جدًّا على موته، لكن كانت بتتعامل معايا بكل سعادة و إقبال على الحياة...

عمرها ما حسستني إنها مكسورة أو حزينة رغم إنها كانت كدا بالفعل، ولأننا أصحاب جدًّا فسألتها في مرة هي ازاي بتقدر تعمل كدا؟!

بتجيب منين القوة الجبارة دي اللي تخليها نقعد تضحك وتهزر وتلعب معايا رغم إنها من دقايق بس كانت بتعيط في أوضتها وقلبها محروق على أبويا!

قالتلي كلام فضل محفور في دماغي..

زي ما تقولي كدا بقى قانوني في الحياة..

قالتلي: محدش مضطر يحاسب على فاتورة غيره.. محدش مضطر يحاسب على فاتورتك.. حتى اخواتك أو أصحابك.. أقرب الناس ليك مش مضطرين يحاسبولك.. هم واجبهم يقفوا جنبك.. يدعموك.. مش مجبرين يعملوا كدا طول الوقت..

لأنهم بشر مش روبوتات متحركة.

بشر ليهم طاقة تحمل ومشاعر قابلة للنفاذ وسعة استهلاكية قد تكون بالكاد بتكفيهم لمواجهة العالم الهزلي دا..

حمل الليالي يخف لما يشيلوه اتنين اه بس دا لما تقابل حد جاي من عالم سمسم غير محمل بأحمال.. لكن طول ما انتوا الاتنين من هنا، فوارد جدًّا إن الحمل يتضاعف لما يشيلوه الاتنين.. فطالما أنت كبير وناضج وبتخبط في الحياة شيل فاتورتك بنفسك

ماترميهاش على غيرك.. لأنه عنده فاتورته أصلًا اللي مفروض يحاسب عليها..

- غريبة!

- إيه اللي غريب؟!

- أصل كل تصرفاتك معايا بتقول إنك مؤمن بإن حمل الليالي خفيف لما يشيلوه اتنين، ودا عكس الكلام الجميل اللي مامتك قالته!

- لا هي قالت إن القاعدة دي ممكن تبقى صح لما يكون حد من

الطرفين جاي من عالم سمسم.

- مش فاهمة!

- يعني اعتبريني جاي من عالم سمسم، وشيليني الحمل معاكِ يمكن يخف!

ارتبكت ليلة ولم ترد..

فقال إلياس موجهًا حديثه إلى فيروز: ولا إيه رأيك يا فيروز؟

- ثح.

- هو إيه اللي "ثح"؟

- كل الكلام اللي بتقوله.

شعرت ليلة بغيرة خفية من فيروز، ثم سخرت من نفسها على هذا الخاطر الهزلي.. أيعقل أن تغير من فتاة صغيرة مثل فيروز! ثم أتغير منها على من؟!

وعادت لشرودها من جديد..

- يا ربي طب أكسر كل شبابيك القطر ولا اعمل إيه بس؟!

فقالت فيروز مقلدة إياه: ياربـــيـيـــييي!

ضحكت ليلة بشدة وهي تقول محاولة لتغيير دفة الحديث: هو فاضل أد إيه ونوصل؟

- يعني حوالي ١١ ساعة كدا.

- يـــــــــاه!

- أول مرة تسافري؟!

- مسافة طويلة كدا.. آه... وأنت؟

- لا أنا سافرت أكتر من مرة.. بس برا مصر.

- واو.. سافرت فين؟

- كنت عايش أصلًا في باريس، وسافرت منها كذا مرة للبنان قبل ما اجي مصر.

- باريس! ولبنان! ازاي؟

- أبويا كان لبناني وأمي مصرية.. اتقابلوا في لبنان واتجوزوا في باريس، لكن لما ماتوا قررت أرجع أعيش في بيت أمي اللي في القاهرة.

- طب ليه مارجعتش لبنان!

- يعني.. العلاقة بيني وبين أهلي اللي هناك مش أحسن حاجة، أو بالأحرى يعني مفيش علاقات بينا أصلًا.

صمتت نورا تستحثه على الحديث بعينيها فقال: هما كانوا رافضين فكرة ارتباط أبويا وأمي، لكن قصة حبهم كانت أقوى من

أي عائق وبالفعل اتجوزوا واستقروا في باريس، لكن العيلة في لبنان فضلت تحاربهم..

أبويا فضل يعافر وأمي بتسانده لحد ما انهار تمامًا ومات من الحزن.. أو كانت درجة أكبر من الحزن.. وأمي ماقدرتش تستحمل كتير وحصلته..

رجعت لبنان كذا مرة لأن حالتنا المادية كانت صعبة جدًّا، لكن العيلة رفضت تساعدني.. رجعت القاهرة وكملت دراستي هناك وسكنت في بيت أمي القديم وكنت بشتغل، ومن فترة قريبة عرفت إن جدي توفى في لبنان وإني ورثت كل الثروة اللي عاش عمره كله بيحرم أبويا منها، وبعد شوية إجراءات انتقلت الفلوس ليا..

وقتها حسيت إني مخنوق والدنيا كلها فوق قلبي، فقررت أزور الاسكندرية.. وبمجرد ما نزلت من القطر... قابلت فيروز.

- والدك و والدتك دول أبطال بجد.. أنا واثقة إن قصتهم فيها تفاصيل كتير حلوة.

- أروع قصة حب ممكن تقابليها في حياتك..

- حابة إني أسمع منك أكتر عنهم.

كان إلياس مضطربًا.. حزينًا، وقد تجدد وجعه على فراق والديه واسترجاع تلك الذكريات المؤلمة، فقال وقد احتقن صوته

وبدا وكأنه على وشك البكاء: أكيد.. في وقت تاني أكيد.

التزمت ليلة الصمت، بينما فيروز كانت قد رمت نفسها بين أحضانها وهي تلف ذراعيها الصغيرين حول جسده وتربت بيديها على ظهره.

نظرت إليهم ليلة وهي مبتسمة لتصرفات الصغيرة التي تدل على الكثير عن شخصيتها.

– تشربي قهوة؟

– ياريت.

– لو سمحت يا والدي.. عاوزين اتنين قهوة!

– من عينيا يا أستاذ.. السكر إيه؟

– سادة.

– تحت أمرك.

تابعت ليلة العجوز المبتسم بانبهار حقيقي وهو يتنقل بين عربات القطار مناديًا بنغمة عذبة: شاي.. قهوة.. نسكافية.. شاي شاي شاي!

– أكيد مش أول مرة تركبي قطر!

– أول مرة.

قالتها بخفوت وهي تفرك يديها..

- غريب! احنا اتقابلنا في المحطة أصلًا!

- كنت مضطرة بس أرجع فيه..

- ليه مضطرة.. مواصلة القطر ممتعة جدًّا على فكرة!

- أمتع من الطيارة؟

- أكيد لا بس شعورين مختلفين تمامًا.. الطيارة ليها متعتها لفكرة إنك طايرة بين السحاب بتبصي على كل حاجة من فوق.. العمارات والمباني الضخمة والمدن الكبيرة وكل مظاهر الحياة اللي ناس بتتقاتل في سبيلها

بتفضل تصغر تصغر لحد ما تبقى عبارة عن نقط! نقط صغيرة أوي مش واضحة... لو فكرتِ شوية هتلاقي إننا لازم نبص على حياتنا من شباك الطيارة..

طول ماحنا تحت ومحبوسين جواها بنشوف أد إيه المشاكل كبيرة وضخمة ومحاوطانا، لكن لو خرجنا وبصينا لكل دا من فوق.. هنقدر نقيم أحسن وندي لكل حاجة حجمها الطبيعي.

نظرت له ليلة وقد لمعت عيناها لمعة إعجاب لم تخفَ على إلياس،

لكنه تظاهر بالتغافل حتى يتيح لها التجول بحرية داخل طيات قلبه وعقله.

– طيب قوليلي... ليه عمرك ما ركبتِ قطر قبل كدا؟

– بخاف...

– من إيه؟!

– من القطر

– بتخافي من القطر؟!

قالها بدهشة، بينما ضحكت فيروز بشدة وهي تقول: أنا بحب القطر!

– بتحبيه ليه يا فيروزة؟

– عشان يعمل تووووت توت..

ضحكا بشدة على كلماتها، وفي هذه الأثناء وصل العجوز بكوبين من القهوة، أخذهما إلياس وابتسم له بعذوبة وهو يشكره ويعطيه النقود.

أخذها العجوز وهو يتمتم: ربنا يخليكوا لبعض ويباركلكوا فيها ويديم الحب اللي في عينيكوا في قلوبكوا.

رحل وما زال يدندن، بينما صدم إلياس وليلة وكلاهما يشعر بالحرج الشديد وبدا عليهما الارتباك.. تشاغل كل منهما بكوب القهوة حتى قالت فيروز قاطعة لصمتهما: وأنا مش هشرب؟

- لا ... دي بتاعت الكبار بس!

- أنا كبار بس.

- لا.. أنتِ صغيرة، وأنا جبتلك عصير الفراولة بتاع الصغيرين.

- طيب.

تنحنح إلياس ثم قال: هو أنتِ من عشاق شرب القهوة على أنغام معينة؟

هدأت قليلًا إثر نبرته المرحة، فقالت: مش شرط أغنية بعينها، لكن عمتًا شرب القهوة بالنسبالي بعتبره وقت باخد فيه هدنة من العالم، وفي الغالب دا مش بيحصل غير وسماعاتي في ودني و فعلى حسب مودي بقى ساعتها.

- أبويا وأمي كان ليهم طقوس خاصة مع القهوة الصباحية.

- إيه هي؟

- بلكونة البيت كانت واسعة شوية، فكان فيها ترابيزة على سبرتاية وكل عدة القهوة والكرسيين، وفي ال ""corner جرامافون أمي كانت وارثاه من جدها، وكل يوم الصبح هي تقعد تعمل القهوة على السبرتاية

وهو يختار الأغاني اللي هيسمعوها وبعدها يروي الزرع المرصوص على سور البلكونة.

تكون هي خلصت وتصب القهوة يقوم يروحلها وفي حركة مسرحية كأنهم من عالم تاني بالأبيض والأسود يقولها: سعيدة يا هانم.. تسمحيلي بالرقصة دي؟

تمدله إيدها وهي مكسوفة زي بنت صغيرة لأول مرة بتواعد شاب

فيزود كسوفها ويبوس إيدها برقة ويبدأ رقصته معاها.. وبعدها يقعدوا يشربوا القهوة وهم ساكتين تمامًا، لكن عينيهم كانت بتقول كل حاجة..

تعرفي إنهم فضلوا محافظين على الطقوس دي حتى بعد ما أنا اتولدت وكبرت..

تنهد بعمق وبداخله حنين مستعر شعرت به ليلة، فربتت على يده وهي تطمأنه بابتسامة عذبة.

- طيب بما إننا اتشاركنا وقت مقدس زي دا.. اسمحيلي نتشارك أغنية نسمعها سوا؟

- امممم موافقة.

أخرج سماعات الأذن خاصته من الحقيبة ووضع إحدى السماعات في أذنه اليسرى وأعطاها الأخرى لتضعها في أذنها اليمني.

اطمأن أن فيروز ما زالت مندمجة في الألعاب والرسوم المتحركة بهاتف ليلة، وأخرج هاتفها وبعد ثوانٍ سكتت أصوات البشر المزعجة، واحتل صوت الرائع زياد الرحباني جميع مراكزهم السمعية وهو يشدو..

"بلا ولا شـــــي..

بحبك بلا ولا شـــــي..

ولا في بهــالحب مصاري..

ولا ممكن فيه ليرات..

ولا ممكن في أراضي..

ولا فيه مجوهرات..

تعي نقعد بالفي..

مش لحدا هالفي..

حبيني وفكري شوي..."

***

وفي بيت الدسوقي كان كل شيء يحدث في صمت مطبق يجاهد الجميع لإظهار الفرحة متمنِّين السعادة لنورا وزياد، لكن الحزن والقلق على محسن كان الفائز بنصيب الأسد، وعلى الرُّغم من هذه

الظروف إلا إن نورا كانت سعيدة للغاية؛ ستصبح زوجته أخيرًا بعد حب دام لسنوات طويلة منذ كانا طفلين، لكنها حافظت على اتزانها وتحكمت في مشاعرها

مراعاة لخالها وزوجته التي طالما اعتبرتها ابنتها؛ لذا عزمت قرارها

- خالي.. ممكن ادخل؟

- تعالي يا حبيبتي اتفضلي!

- ألف مبروك يا نورا.. ربنا يسعدك يا حبيبة قلبي!

- الله يبارك فيكِ يامرات خالي..!

- خير يا حبيبتي كنتِ عاوزاني في حاجة؟

- آه يا خالي.. بصراحة.. أنا.. يعني كنت عاوزة أقول..

نظر إليها محسن وإلهام وهما يعلمان ما جاءت لقوله..

- كنت عاوزاكوا بس ماتزعلوش مني ولا من معاذ.. احنا والله عمرنا ما هنحس بطعم أي حاجة ومحسن مش موجود.. أنا هقولكوا حاجة محدش كان يعرفها غيري أنا ومحسن ومعاذ.

- قولي يا بنتي!

- معاذ كان بيحبني من واحنا صغيرين.. وبصراحة.. يعني..

أنا كمان كنت.. يعني.. كنت ميالـه ليه ومحسن كان عارف إن معاذ بيـحبنـي وحس بردو إني موافقة.. أنا ومحسن أخوات وأصدقاء من صغرنا.. عشان كدا لما طلبتوا منه يخطبني هو رفض.. والله يا خالي مكنش عاوز يكسر كلمتك أبدًا، لكن هو صاحب معاذ الوحيد وعارف إني بحبه غير إننا اتربينا على إننا أخوات عشان كدا رفض بالشكل دا، لكن هو والله بيحبكوا وعمل كدا بس عشانا.

توقفت عند هذا الحد وقد اهتز صوتها وأجهشت بالبكاء، وكذلك إلهام والدة محسن وسالم..

- أنا بس مش عاوزاكوا تزعلوا مننا ولا من جدي.. هو بيتمنَّى يسعدنا كلنا.. عن إذنكوا!

تركتهما ورحلت، بينما التزم كل منهما الصمت التام وقد غرقا في أفكارهما، وقد طغى الشعور بالذنب وتأنيب الضمير على أي شعور آخر .

ذهب الرجال لتأديَّة الصلاة في المسجد، بينما انشغلت السيدات والفتيات بتنظيف بهو المنزل لاستقبال أهل معاذ والمأذون، وبعد وقت قليل عادوا من الصلاة وقد جلس المأذون على رأس المائدة وحوله والد معاذ وعمه ووالد نورا وجدها وأخوالها.

وتم كل شيء بصمت زاد من حدة الموقف وارتباك الجميع وتوترهم.

وعندما انتهى المأذون من عمله رحل واستأذن الجميع تباعًا، بينما بقى معاذ ونورا والدسوقي وسالم.

أشار الدسوقي لمعاذ بأن يأخذ عروسه ويذهب بها إلى "حديقة سمية" وقد فعلا.

- أنا آسف!

قالها معاذ بتوتر أذهل نورا، وقد كانت تتوقع كلمات أخرى غير الأسف في هذا الموقف، فنظرت له بعدم فَهم..!

- أقصد يعني آسف على الظروف دي.. كنت أتمنى..

لم تمهله التكملة وقالت: المهم إننا سوا.. دي النتيجة النهائية أيًّا كانت الطرق!

ابتسم وهو يحاول السيطرة على انفعالاته، ثم قال: أنتِ جميلة أوي يا نورا.

توردت وجنتاها وأطرقت بخجل بينما ارتفعت دقات قلبها حتى خيل إليها أن معاذ يسمعها بوضوح..

- كل الكسوف دا عشان قولتلك أنتِ جميلة؟ أومال لو كملت بقا هتعملي إيه؟!

- معـاذ!

- يا عيون معاذ وقلب معاذ!

- معاذ احنا في الجنينة..

- عادي ما هي جنينة بيتكوا وأنتِ دلوقتي مراتي أصلًا.

اقترب منها حتى شعرت بأنفاسه الحارة، فابتلعت ريقها بتوتر وخجل ونظرت حولها سريعًا، لكن معاذ أصرَّ على الاقتراب أكثر فأكثر واضعها إحدى يديه على خصرها، والأخرى على ذقنها كي ترفع وجهها ويستطيع النظر إلى عينيها..

شعرت نورا أنها محاطة به من جميع النواحي وازداد خجلها وتورد وجنتيها مما زاد حسنها وملاحتها.. مال برأسه نحوها وأسند جبهته على جبهتها، فأغمضت عينيها وسمعته يهمس: بحبك أوي يا نورا!

لكن سرعان ما ابتعد كل منهما عن الآخر عندما سمعا وقع أقدام قادمة وصوت الدسوقي يسبقه..

- يلا عشان نزور محسن؟

عادا ثانية إلى الواقع المؤسف وذهبا لزيارة محسن.. وفي المشفى كانت تنتظرهم مفاجأة صادمة..!

- أستاذ معاذ.. كنت عاوز حضرتك!

- خير يا دكتور اتفضل.. طب اسبقي أنتِ يا نورا مع جدي

وعمي سالم!

- لا أنا جاية معاك مش هسيبك!

ذهبا سويًا إلى مكتب الطبيب وقد شعرا بخطر داهم يهدد العائلة، وبتلقائية أمسكت نورا بيد معاذ وهي تضغط عليها بقوة كأنها تؤكد له وجودها معه..

- أنا عارف إن الموقف صعب، لكن واجبي إني أوضحلكوا حقيقة حالة أستاذ محسن.

- خير يا دكتور !

- للأسف مش خير..

معظم خلايا المخ ماتت بسبب النزيف و دا بيضعف احتمالية الشفاء..

دي نتيجة الفحوصات الشاملة اللي عملنهاله واللي كلها بتأكد كلامي..

- طيب احنا ممكن ننقله في مستشفى تانيه أو نسافر..؟!

قاطعه الطبيب قائلًا: أستاذ معاذ أنا مقدر مشاعرك.. بس حقيقي مفيش أمل.. أستاذ محسن محتاج معجزة من السما!

- بعد إذن حضرتك.. ممكن أبص على الفحوصات دي؟

- آه أكيد اتفضلي، لكن هتعرفي تقرأيها؟

- أنا دكتورة..

- آسف.. اتفضلي!

أخذتها نورا وقلبها يعتصر ألمًا على حالة محسن، بينما معاذ ظل واجمًا وهو يتوقع القادم الأسوأ!

لكن.. الأسوأ لم يأتِ بعد..

ظلت نورا تتفحص الورق بتركيز وعناية شديدة لكل ما هو مكتوب أمامها حتى وصلت إلى جملة معينة.. وفجأة.. صرخت بشدة وسقط الورق من بين يديها..

- نورا! في إيه؟!

- محسن! محسن عقيم!

في نفس اللحظة دلف الدسوقي وسالم مكتب الطبيب وسمعا ما قالت نورا..

- نعم! ازاي يعني؟! أومال بنته دي ازاي؟!

- الورق اللي معايا دا بيأكد إنه عقيم!

- الكلام دا صحيح يا دكتور؟!

- أنا مش فاهم في إيه!

- لو سمحت رد علينا.. الكلام اللي في الورق دا صحيح يخص محسن؟

- أكيد في حاجة غلط يا بني.. لو سمحت اتأكد من اسم المريض!

- أيوة يا جماعة الورق دا يخص أستاذ محسن، وهو فعلًا عقيم وأنا بلغته دا بنفسي !

- نعم! بلغته ازاي؟!

- من كام يوم كان جاي يعمل فحوصات وكدا وبلغته بالخبر بنفسي يوم الخميس اللي فات بالليل.

ذُهِل الجميع وتاهت الكلمات من أفواههم، ولم يلحظ أحد رد فعل معاذ المرتبك والذي حاول جاهدًا كي يبدي رد فعل طبيعي دون أن يثير أيَّة شكوك حوله، بينما قال سالم موجهًا له الحديث:

معاذ.. أنت قابلت محسن يوم الجمعة؟ اتكلم معاك في أي حاجة؟

- لا والله يا عم سالم محصلش أي حاجة!

- يا عالم هتجنن يا عالم... ازاي عقيم وهو عنده بنت؟!

كانت نورا صامتة تمامًا يرفض عقلها تصديق التفسير الوحيد المنطقي لما يحدث وكذلك الدسوقي، ثم خطرت لها فكرة رائعة

علها تخفف من حدة الموقف، فقالت: مش ممكن يكون محسن عرف الموضوع دا هو وأمل واتبنوا الطفلة دي من غير ما يقولوا؟!

- عاوزة تقنعيني إنها كانت بتمثل علينا طول فترة حملها!

- مين عارف يا خالي! وبعدين مش هي سافرت لأهلها وقت الولادة؟!

- أنا حضرت ولادتها في المستشفى مع محسن.

قالها الدسوقي في حنق وبصوت مخنوق وملامح منكمشة أخرستهم جميعًا لتتأكد ظنونهم، وانصرفوا جميعًا واجمين.

- ياهوي! ياهوي ياهوي! يا مرك يا إلهام..! سالم! أنت فاهم معنى كلامك دا إيه؟

لم يرد بل نكس رأسه في أسى وعجز شديدين، فجلست إلهام بجواره باكية وما زالت تصيح:

- يمكن عشان كدا كانوا متخانقين يومها وراحت لأهلها!

- يمكن يا إلهام يمكن.. أنا مابقتش فاهم حاجة ولا عارف اتصرف في حاجة.

وفي غرفة نورا التي كانت تتحدث مع معاذ باكية:

- مش قادرة أصدق يا معاذ.. مش قادرة أصدق إن كل دا

حصل لمحسن!

- ولا أنا يا نورا... الموضوع صادم جدًّا!

- هو صادم بعقل! دي كارثة! أنا مش متخيلة محسن لما يقوم بالسلامة هيبقى رد فعله إيه؟!

ابتلع ريقه بتوتر وقال: أنتِ متأكدة إنه مكنش يعرف من زمان؟

- أنت بتقول إيه يا معاذ؟! هيعرف ازاي يعني؟! أكيد يا حبيبي كان فاكر إن فيروز بنته!

- مش بتقولوا إن مراته غضبانة و إنها من يومها ما حاولتش تتواصل معاه؟!

- بس أكيد دي كانت خناقة عادية.. هي لو مكنتش عادية مكنش زمانها خرجت من البيت على رجليها أصلًا!

- قصدك إيه؟

- ماعرفش بقا يا معاذ بس أكيد الموضوع مكنش هيعدي بالساهل كدا!

- ويمكن هو سكت وسابها تخرج عشان عارف إنهم كلهم كانوا ضدوا ومحبش يتكسف أدامهم!

صمتت نورا تفكر في كلامه الذي بدا مقنعًا إلى حد كبير، ثم

قالت: معاذ..

احنا لازم نسافر ليها سوا ونتكلم معاها ونحاول نفهم الموضوع بالظبط!

- إن شاء الله!

- أنا هقوم أقول لجدي دلوقتي وبكرة الصبح نتحرك على طول.

- حاضر يا نورا.

قالها بقلة حيلة ظنتها نورا بسبب توالي المصائب عليهم، في وقت كان ينبغي أن يكون أسعد أيامهم، فقالت: أنا عارفة إن الظروف حوالينا مش طبيعية..

واحنا الاتنين مجروحين بس احنا هنعديها.. عشان احنا الاتنين بنتسند على بعض

مش حد فينا ساند على التاني..

تصبح على خير يا حبيبي.

قالتها برقة ونعومة وصدق أصابه بكهرباء تبعه خدر لذيذ استشرى في أنحاء جسده، بعدما دق قلبه بقوة وعنف..

الفصل الخامس

اقتربت نورا من غرفة جدها، لكن قبل أن تطرق الباب سمعت همهمات تشبه البكاء!

ترددت بضع دقائق حتى سمعت صوت جدها يحادث شخصًا ما وكأنه موجود..

علمت فورًا أنه يحادث جدتها الراحلة سمية ومؤكدًا إنه يؤنب نفسه، لأنه من ساند محسن في تلك الزيجة..

- أنا اللي غلطان يا سمية.. أنا اللي غلطان..!

غلطت مرتين ؛ مرة لما ضيعتك من إيدي زمان، ومرة لما ضيعت حفيدي بإيدي دلوقتي.. أنا مش قادر أبص في وش ولادي يا سمية.. أكيد كلهم شايفني متهم في الكارثة دي.. أنا كنت خايف.. خايف أكرر مآساتي معاكِ تاني.. كنت حابب أجمعهم سوا عشان شوفت محسن متمسك بيهَا..

مش هقدر اتحمل نظرة لوم واحدة من أي حد فيهم وكأني أنا السبب..

لكن أنا السبب فعلًا... أنا سبب كل اللي حصل.. لو محسن

جراله حاجة مش هسامح نفسي أبدًا!

كانت نورا ما زالت واقفة خلف الباب تنهمر دموعها إثر كلمات جدها الموجوع بشدة، ولكن حسمت أمرها وقررت أن تطرق الباب.. لم تسمع رده، لكنها أصرت على الدخول، ذهبت إليه مباشرة وارتمت بين أحضانه باكية تقبل رأسه،

احتضنها الدسوقي وما زالت دموعه تنهمر وقد هربت منهما الكلمات..

مرَّت بضع دقائق حتى استجمعت نورا نفسها وقالت: بعد إذن حضرتك يا جدي..

أنا ومعاذ هننزل بكرة القاهرة نقابل أمل.. أهو يمكن نقدر نفهم منها أي حاجة بدل اللخبطة دي..

لم يعلق الدسوقي ، لكنه اكتفى بإيماءة رأسه أي أنه موافق..

خرجت نورا من غرفته وذهبت تستأذن والديها قبل أن تهرب من باقي ساعات يومها بالنوم..

***

انتهت الأغنية التي أعجبت بها ليلة بشدة وقالت: جميلة الأغنية..

أول مرة أسمع زياد الرحباني رغم إني من عشاق فيروز!

- مشٍ ناس كتير يعرفوا إنه ابنها أصلًا، لكن العيلة دي فنية أصيلة فعلًا.. بالمناسبة أنا كمان من عشاق فيروز.

- واضح إن بينا حاجات كتير مشتركة..

قالتها بمرح ومشاكسة، فابتسم إلياس ابتسامة واسعة وهو يلمس أخيرًا بعض راحة بدت جلية على وجهها، لكن قطع صفوهما صوت مزعج آتى من أحد المقاعد..

- أنا متأكدة إنك كنت بتكلم واحدة.

- ارحميني بقى وبطلي نكد أومال لو مكنتش مسافر أفسحك!

- لا والله! و أنت عشان مسافر تفسحني دا يديك الحق تعمل أي حاجة؟

- آه يديني و إن كان عاجبك.. وتاني مرة صوتك مايعلاش!

- خايف من صوتي عشان متأكد إنك غلطان مش كدا؟!

- قولت صوتك ما يعلاش!

- أنت بني آدم حقير فعلًا وعمرك ما هتتغير أنا غلطانة إني..

وقبل أن تكمل البائسة حديثها فوجئت بصفعة مدوية على خدها أسقطتها أرضًا..

تدخل بعض الركاب لفض النزاع، و أخذت إحداهما السيدة

بينما تطوع عجوز بالحديث مع الرجل، وأثناء انشغاله بمتابعة ما يحدث فوجئ إلياس بليلة تبكي بانهيار شديد، وفيروز أيضا كانت تبكي وتتشنج بقوة وقد ارتعشت شفاها بقوة، ارتبك إلياس بشدة فاحتضن فيروز بقوة محاولاً تهدأتها، وعندما وجدتها ليلة بهذه الحالة حاولت التماسك قليلًا وهي تربت على ظهرها وشعرها بحنو بالغ كي تهدأ، وبعد دقائق نامت الصغيرة متشبثة بإلياس.

زفر إلياس بقوة وهو يقول: أنا متأكد إن البنت دي وراها سر كبير.. الطفلة دي مستوى إدراكها عالي جدًّا.

- صعبانة عليَّ أوي!

- يمكن عشان هي شبهك؟

- ازاي؟

- تايهة.. مش حاسة بالأمان.. ووراها سر كبير.

- عندك حق.. بس فيروز حاسه بالأمان معانا مش كدا؟

- دي فيروز الصغيرة.. طيب بالنسبة لفيروز الكبيرة بقى؟

ارتبكت ليلة وعادت دموعها من جديد..

- أخواتي كانوا بيكرهوني.. شافوا إني السبب في معاملة أبويا ليهم، رغم إني مكنش ليا أي ذنب، لكن كانوا خلاص كرهوني وكرهوه.. سببوا ليه مشاكل كتيرة جدًّا.. في الشغل.. مع أصحابه..

في التجمعات العائلية وحتى العامة.. كانوا بينتقموا منه بأي صورة تيجي في بالهم..

أبويا ماستحملش يشوف دا... ومات..

لكنه كان مصر يزود كرههم ليا، فكتب في وصيته إن النصيب الأكبر من كل ثروته ليا.. ومن وقتها وحياتي كلها اتشقلبت...

لمست تلك الجملة قلب إلياس، فهو أيضًا حياته انقلبت بعد وفاة والده..

- وقتها كان عندي عشرين سنة، وكنت بدرس في كلية صيدلة..

آه نسيت أقولك إن أبويا كان عنده أكبر شركات أدوية في الشرق الأوسط،

وطبعا بعد دخولي صيدلة دا زود من رصيد محبتي في قلبه..

خصوصًا إن أخواتي اللي أكبر مني كانوا لسه مش عارفين يتخرجوا من كلية آداب بسبب سقوطهم المتكرر..

بعد ما مات بيوم واحد صحيت من النوم وبستعد عشان أنزل أقابل الناس اللي جايين يعزوني، لقيت باب الأوضة مقفول عليّ بالمفتاح!

عدا شوية وقت وأنا مش قادره أفهم إيه معنى التصرف دا..!

فضلت أنادي عليهم وأخبط على الباب وأرن على موبايلاتهم، لكن مكنش في رد..

فضلت قاعدة مكاني مصدومة.. عدى ٨ ساعات ولاقيت الباب بيتفتح بالراحة وحد بيدخل صينية أكل وشوية ميه، وقبل ما اتحرك كان اتقفل تاني بسرعة جدًّا..

زادت صدمتي واستغرابي الشديد لكل اللي بيحصل حواليا وانهارت تمامًا..

وغالبا أغمى عليّ.

فات وقت معرفش أد إيه وأنا على الحال دا لحد ما فوقت لاقيت إننا بقينا تاني يوم..

- وبعدين؟

- نفس السيناريو بالظبط.. لمدة أسبوع كامل.

- أسبوع؟!

- تسمع عن تلف الأعصاب اللي بيعملوه قبل ما يستجوبوا حد؟! هو دا بالظبط اللي أخواتي عملوه معايا.

قالت جملتها الأخيرة بقهر وتهكم حتى فرَّت منها دمعة هاربة حاولت مقاومتها كثيرًا، لكنها فشلت، فتبعتها العديد من العبرات حتى أصبحت تبكي بصوت مسموع وقد فقدت السيطرة تمامًا على

نفسها.

ارتبك إلياس، لكن اعتصر قلبه على ألمها، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يضمها بذراعه إلى صدره ممسكًا إيَّاها بقوة مربتًا على كتفها وشعرها، وبيده الأخرى كانت فيروز نائمة في سكون..

تعجب إلياس من أمره ليجد نفسه فجأة مسؤولًا عن اثنتين امتلكتا قلبه بالكامل. بعد قليل هدأت ليلة وعدلت رأسها وهي تمسح دموعها ثم قالت:

بعد أسبوع فتحوا الباب لاقوني واقعة في الأرض فاقدة الوعي..

بعد شوية فحوصات ومحاليل و أدوية بدأت أفوق شوية.. لاقيتهم جايبينلي ورق وبيقولولي امضي.. ساعتها التعب اللي شوفته مع قلة النوم والدوا مكنتش في كامل وعيي ومضيت.

- كان ورق تنازل عن الميراث؟!

- ياريت.. ياريت تنازل عن الميراث.. كان تنازل عني.

- مش فاهم؟!

- يعني ورقة كانت تنازل عن الميراث فعلًا، و ورقة تانية كانت عقد جوازي.

- نعم!

ابتسمت في سخرية مرة أخرى وقالت في أسى: كانوا عاوزين يتخلصوا مني بأي طريقة..

فجوزوني للمحامي اللي خلصلهم كل الورق و إجراءات التنازل..

- وبعدين؟

قالها بألم واستنكار، فقالت: المحامي ماطلبش منهم أي فلوس في المقابل... في الحقيقة كنت أنا المقابل الوحيد.. وفي خلال يومين كانت كل حاجة جاهزة ولاقيت نفسي في المطار رايحة دبي.

- ازاي! و ازاي في خلال يومين! اللي اعرفه إن إجراءات زي دي بتاخد وقت.

- أنا عرفت إني اتجوزت وإني في المطار لما فوقت في العربية أصلًا.

- يعني إيه؟

- يعني هم خلصوا كل الورق وكل الإجراءات وخدروني لحد ما وصلنا للمطار، ولما فوقت قالولي على كل اللي حصل مرة واحدة، وقبل ما استوعب أي حرف كنت في الطايرة مع راجل غريب سمج مفروض إنه جوزي..

كانت ملامح إلياس منكمشة بشدة، يبدو عليه الذهول والغضب الشديد، وعجزت كلماته عن الرد، فقال بترقب: طيب

على الأقل خلصتي منهم.

نظرت إليه ليلة وقد احتلت السخرية ملامحها..

- قصدك هم خلصوا مني..

- أيًّا كان، لكن أكيد بدأتِ حياة جديدة؟

- بدأت عذاب جديد... اللي فات دا كان ولا حاجة بالنسبة للي شوفته بعد كدا!

صمتت ليلة وأسندت رأسها على النافذة وكادت تغرق في ذكرياتها من جديد، لكنها فوجئت بإلياس يمسك يديها بقوة قائلًا: أيًّا كان اللي مريتِ بيه و أيًّا كانت نوعية البشر اللي أنتِ شوفتيهم في حياتك واللي من حقك جدًّا تكوني بتكرهي كل الناس بسببهم دلوقتي ومعندكيش ذرة ثقة تجاه أي مخلوق، لكن أنا عاوز جدًّا إني أكون معاكِ بالشكل المريح بالنسبة ليكِ.. بس عاوز أفضل موجود.. لآخر العمر.

قالها ولم يمهلها الرد ليضم رأسها حتى تستقر على قلبه مباشرة؛ علَّها تسمع منه ما عجز عن قوله بطريقة مباشرة، وكأنه أصبح المسيطر الوحيد على كل ما يحدث، فأعطاها سماعة الأذن وعلا صوت علي الحجار السيمفونية الكاملة المتكاملة وهو يقول:

" في هويد الليل ولقيتك..

ما أعرف جيتني ولا جيتك..

ما أعرف غير إني لقيت روحي..

ونجيت من همي ونجيتك..."

بعد دقائق من السكون تململت فيروز قائلة: أنا زهقت أوي!

همَّت ليلة أن تعتدل لكن منعها إلياس بيده التي زادت من ضمها إلى صدره وقال موجها حديثه إلى الصغيرة: خلاص يا يوزة قربنا نوصل..

- بردو زهقت!

- طيب نحكيلك حدوتة؟

نظرت له ليلة باستنكار، فهي لا تعرف أبدًا أيَّة حواديت، فهمس إليها بصوت ناعم

- متخافيش وأنتِ معايا.. خليكِ معايا على الخط بس!

أومأت بخجل شديد، فقالت فيروز: طيب!

ابتسم إلياس وهو يحاوطهما بكلتا ذراعيه ويشعر بالدفء لوجودهما بالقرب منه ثم قال: كان يا مكان كان في أميرة جميلة أوي.. عينيها تشبه البحر وشعرها يشبه أشعة الشمس ووشها بدر منور.. ضحكتها شبه صوت العصافير وألوان الفراشات وريحة

ورد الجنينة..

- كان اسمها إيه؟

- اسمها غرام.. غرام كانت محبوبة من كل الناس والملك كان بيخاف عليها أوي.. وبيحقق لها كل أحلامها وبيحافظ عليها وبيحميها.. كانت كل يوم الصبح تنزل تلعب في الجنينة مع الفراشات الملونة.. الفراشات كانت بتحبها أوي وبتحب تجري عشان غرام تجري وراها ويسمعوا صوت ضحكتها الجميلة..

وفي يوم من الأيام كانت في حشرة شكلها وحش أوي أوي كانت مستخبية وسط الجنينة..

نزلت غرام عشان تلعب مع الفراشات أصحابها وفضلت تجري وراهم..

الفراشات شافت الحشرة الوحشة دي وجريت بعيد أوي خايفة منها

لكن غرام كانت فاكرة إنهم بيلعبوا معاها وكملت جري وراها

لحد ما الفراشات فجأة اختفت، وفجأة بقت غرام في مكان غريب لوحدها وتعبانة من الجري الكتير..

وقفت وبصت حواليها وهي خايفة أوي.. وفجأه ظهرتلها الحشرة الشريرة

صرخت غرام من الخوف وجريت بعيد، لكن الحشرة الشريرة كانت أقوى منها.. وفجأة.. الحشرة دي اتحولت لحشرة كبيرة أوي خطفت غرام على جناحها وطارت بيها بعيد.. بعيد أوي عن الملك والجنينة والفراشات الملونة

- هـــــا وبعدين وبعدين.

- لا أنا كدا خلصت.. ليلة هي اللي هتكملنا بعد كدا إيه اللي حصل.

نظرت له ليلة وقد فَهمت ما يقصده، فأكملت على نفس طريقته..

- الحشرة الشريرة أخدت غرام وطارت بيها بعيد لمكان وحش أوي

مفيهوش لا ورد ولا فراشات.. غرام حاولت تهرب لكن كانت ضعيفة وصغيرة أوي قصاد الحشرة الضخمة الشريرة.. الحشرة كانت بتكره غرام أوي رغم إنها عمرها ما شافتها قبل كدا ولا عملت ليها حاجة، لكن بدأت تأذيها...

- ازاي؟

- كانت بتعذبها وبتضربها كتير لحد ما غرام تقع وتعيط فتروح حبساها في أوضة ضلمة، وتاني يوم لما غرام تبطل عياط الحشرة

تكرر تاني تعذيبها لحد ما في يوم غرام تعبت أوي وكانت خلاص بتموت.. ساعتها الحشرة بطلت تضربها، لكن عملت حاجة أبشع من الضرب.

- عملت إيه؟

قالتها فيروز وهي مشدوهة منتبهة بكافة حواسها للقصة وقد نسيت كل شيء..

- سرقتها.

- سرقت فلوسها؟

- سرقت كل حاجه من غرام.. كل حاجة!

قالتها بنبرة باكية وهي تنظر إلى إلياس الذي فَهم مقصدها وتألم له، فأخذ يمرر يديه على رأسها كي تهدأ قليلًا وتستكمل بنفس الطريقة.

- وبعدين؟ غرام عملت إيه؟

- غرام كانت بتموت.. الحشرة خافت أوي ومكنتش عارفة تتصرف ازاي!

سابت غرام لوحدها في المكان الضلمة وخرجت.. فضلت تلف في الشوارع تلف في الشوارع لحد ما جات عربية كانت ماشية بسرعه أوي خبطتها وماتت.

- هـــيـــــــه أحسن.

- غرام مكنتش عارفة ترجع ازاي.. مكنتش عارفة الطريق.. قعدت كتير محبوسة لحد ما خرجت وفضلت تدور على طريقة ترجع بيها تاني لكن ماعرفتش.. فقررت تعيش هناك وخلاص بأي طريقة.

فقال إلياس: بس الملك كان بيدور عليها في كل مكان.. كان خايف عليها أوي ومش مصدق إنها ممكن تبقى بعيدة عنه.. الفراشات صحباتها اختفوا من يوم ما اتخطفت ومحدش كان عارف مكانهم.. حتى ورد الجنينة كله دبل ومات.. الملك كان شجاع وقوي وصبور وماتعبش خالص.. دور كتير خالص لحد ما عرف مكانها ولقاها...

- هـــيـــــــه!

صفقت بيديها بسعادة ومرح وانتصار !

- ورجعت غرام القصر ورجعت معاها الفراشات الملونة و ورد الجنينة والأهم من كل دا.. قلب الملك إلي كان بيدق بس لما تكون غرام معاه

وتوتا توتا خلصت الحدوتة.

- عجبتك يا فيروز؟

- أوي أوي يا ليلة.
- طب يلا نجهز عشان هننزل أهو !
- إلياس.. احنا هنروح فين وهنتحرك ازاي؟
- هنسأل هنا في المحطة زي ما عملنا هناك.
- طيب وبوست الفيس بوك؟
- للأسف مش معايا نت.. هشحن بردو لما ننزل ونشوف.

كان يتحدث وما زال محتفظًا برأسها على صدره، ولما انتبهت ليلة توردت وجنتاها وهمَّت برفع رأسها، لكن قابلها إلياس بضغطة أشعرتها بالسكون الذي تمنَّت ألا تفقده قط.

طمأنها بعينيه بدون أي حديث، ثم تركها ترفع رأسها كي يستعدا للنزول..

أخذت ليلة فيروز وذهبا لأقرب متجر لشراء كارت شحن يمكِّنهم من الدخول إلى الإنترنت، حتى يعود إلياس من مكتب المحطة.

عاد إلياس بخيبة أمل، فقد تأكد من عدم سؤال أيَّة شخص هنا عن فتاة تائهة،

أما ليلة فقد انتهت من شحن الهاتف وفتح الإنترنت..

- إليـــاس.. الحق... في كذا واحدة كاتبين إنهم يعرفوا مامتها..

***

ذهبت نورا مع معاذ إلى القاهرة، وبمساعدة معاذ وصلا إلى منزل أمل

زوجة محسن.. دقا الباب كثيرًا لكن دون رد..

- وبعدين يا معاذ؟!

- مش عارف.. واضح إنهم مش هنا..

قالت نورا: نسأل البواب أكيد عنده فكرة!

- طيب يلا.

هبطا الدرج مرة أخرى وقد تنفس معاذ الصعداء دون أن تلاحظه نورا، ثم اقتربا من بواب العمارة.

- لو سمحت.. ماتعرفش الأستاذ محرم عبدالكريم فين؟

- الأستاذ محرم تعيش أنت يا أستاذ من زمان.

- أيوة مانا عارف.. أنا قصدي زوجته وبنته.

- لا مؤاخذة يا بيه.. هي الست الكبيرة سافرت من زمان من يجي ٦ شهور كدا، وبنتها جات هنا من كام يوم بس سافرت بردو.

- وأنت عرفت منين إنهم سافروا؟

- ابني سواق التاكسي اللي وداهم المطار.

باتت علامات خيبة الأمل على وجه نورا، بينما شكره معاذ باقتضاب.

همَّت نورا بقول شيء، لكن قاطعها صوت هاتف معاذ..

- أيوة يا حاج...

كان والد معاذ ، لكن بدا من نبرة صوته أن هناك أمرًا خطيرًا انكمشت له ملامح معاذ..

- في إيه يا معاذ رد عليّ؟ معاذ؟

لم يستطع الرد وقد انهمرت دموعه، فانخلع قلبها وقد فَهمت ما حدث،

اختطفت الهاتف من بين يديه وهتفت قائلة: إيه اللي حصـ..

وقبل أن تكمل سمعت الرد الذي ألجمها..

- محـسن مات.

وكأنَّ غيمة سوداء هبطت على منزل الدسوقي وابتلعته، بدا كل شيء حزينًا حتى جدران المنزل و ورود الحديقة.

بعد انتهاء مراسم الدفن والعزاء ظلوا الجميع جالسين في

بهو المنزل يبكون بألم يقطع نياط القلب.. وحده الدسوقي تركهم وذهب إلى غرفته..

قالت نوارة الصغيرة من بين دموعها: أنا هبات مع جدو انهاردة!

ورحلت راكضة خلفه، بينما إلهام وسالم ما زالا في حالة من الصدمة وعدم التصديق، وكأنهما في عالم آخر.. إلى الآن لم تسقط دمعاتهما.. ينظران إلى الفراغ وقد تجمدت أطرافهما، حاولوا التخفيف عنهما، لكن دون فائدة..

أشفقت محروسة و فتحية على مصاب سالم وزوجته المكلومة، بينما هاتف حسن الطبيب كي يأتي مسرعًا..

وفي غرفة الدسوقي الذي كان يبكي بحرقة شديدة وهو يحتضن صورة زوجته الراحلة وقد تجدد ألم رحيلها مرة أخرى..

كان يبكيها ويبكي محسن ويبكي نصيبه الذي اختاره كي يتجرع مرارة الألم والفقدان مرتين في أعز ما يملك..

تمنَّى من كل قلبه أن تنتهي حياته قريبًا، فهي أصبحت بلا معنى، بل وازداد وجعه وجرح قلبه الغائر.

اقتحمت نوارة غرفته وألقت بنفسها بين أحضانه وهي تبكي.. شعر وكأنها رسالة سماوية وكأن سمية ما زالت بجواره، وقد وزعت رُوحها عليهم جميعًا.

ليلة ليلاء ثقيلة مرَّت ببطء شديد على قلوبهم جميعًا، فألم الفراق يظهر جليًا عندما يحين موعد النوم.

فإنك بعد إرهاق اليوم الشديد تصبح فريسة سهلة للذكريات التي لا ترحم،

شريط سنيمائي يمرُّ أمام عينيك بكل المواقف التي جمعتكما.. تذرف الدموع تباعًا وقد أرهقت عينيك بالكامل وتنغلق رُغماً عنك وكأنها تستجديك أن ترحمها وتكف عن الدموع، لكن هيهات!

فربما يخيل لك أن دموعك المنهمرة قد تكفي لتملأ نهر النيل بل وتفيض!

ومن جديد تعاود الذكريات وتنهش في قلبك المحترق..

تظن أن النهاية باتت قريبة وسيتحول قلبك النابض إلى رماد، لكن سبحان من يعيده إلى صورته الأولى، فيبدأ الاحتراق من جديد .

***

هتفت ليلة بحماس و هي تخبر إلياس بالتعليقات التي وجدتها، ومن فرط حماسهما غفلا عن فيروز..

سمعت فيروز كلامهما وتذكر عقلها الصغير آخر كلمات قاسية سمعتها،

شعرت بخوف شديد وخطر يقترب منها، فاستغلت انشغالهما عنها وانسحبت بهدوء تركض باكية متخبطة.

- الكلام المكتوب غريب أوي!

دي مامت البنت كاتبة إن الموضوع مقلب سخيف، وإن بنتها بخير ومعاها!

- ما يمكن دي مش مامتها أصلًا! بصي كدا يا فيروز هي دي ماما؟

هنا انتبها أن فيروز ليست هنا، صرخت ليلة بفزع بينما ارتبك إلياس وهو يتحرك مسرعًا ممسكًا بيد ليلة وينادي بأعلى صوته على فيروز..

- اهدي يا ليلة هي أكيد مالحقتش تبعد عن هنا!

- أو يمكن بعدت وحد تاني يلاقيها..

يا فيـــروز!

بعد مرور عدة دقائق مضت كالدهر، وقف إلياس يلتقط أنفاسه وقد تملك القلق قلبه تمامًا..

- إليـــاس! أنت لاقيتها فين في محطة اسكندرية؟

- عند رصيف القطر.

لمعت نفس الفكرة في رأسيهما، وانطلقا مسرعين إلى الرصيف القريب من الموضع الذي وقفا فيه حين اختفت فيروز..

وبعد القليل من البحث وجداها واقفة تنظر إلى القطر وتنهمر دموعها في صمت.

هرعا إليها واحتضناها بحرارة، وقد ارتبكت مشاعرهم الثلاثة، حملها إلياس بيد وبالأخرى أمسك يد ليلة متجها خارج المحطة.

خجلت ليلة من لمسته، وكلما حاولت سحب يدها شد عليها أكثر، فاستسلمت.

- احنا هنروح فين؟

- الفندق.

- فندق إيه؟

- أنا حجزت أوضتين في فندق أكيد محتاجين نرتاح بعد كل دا!

- أيوة حجزت امتى و ازاي؟!

- أونلاين يا ليلة مالك!

- استغربت بس..

وصلا إلى الفندق وما زالت فيروز صامتة تمامًا، وبعد الانتهاء من الإجراءات قال إلياس: خدي فيروز واطلعوا ارتاحوا شوية..

- لا احنا لازم نقعد ونفهم الموضوع.

- طيب تعالوا نقعد في المطعم ونتكلم.

كان تعليق السيدة التي أشار لها البعض أنها والدة الطفلة مريبًا، فقد أكدت أن طفلتها معها وأن هذا المنشور مجرد مزحة أو ربما تكون الفتاة في الصورة تشبه ابنتها فقط.

- فيروزة.. دي صورة ماما؟

نظرت فيروز إلى الهاتف وهي ترتعش ويبدو عليها القلق والخوف، وعندما وقع نظرها على الصورة انهمرت دموعها وأخفت عينيها عن موضع الصورة!

تعجب إلياس وليلة من ردة فعلها ونظرا إلى بعضهما البعض بحيرة شديدة..!

- يوزة يا حبيبتي.. هي ماما؟

- متخافيش يا فيروزة.. احنا معاكِ!

- طب ممكن بس تردي علينا تعرفي اللي في الصورة دي؟

- فيروزة؟

قالها إلياس وهو يقترب منها في حنان، لكنها احتفظت بصمتها وبكائها.

تنهد إلياس بإرهاق شديد وكذلك ليلة..

– طيب أنا عندي ليكوا مفاجأة..

ساعدت نبرته في جذب انتباه فيروز ونظرت إليه بأعين دامعة متسائلة..

– احنا هنروح دلوقتي نشتري حاجات سوا.. ايه رأيكوا؟

– حاجات إيه؟

– حاجات لينا ولفيروز.

– إيه؟

قالتها فيروز بصوت متحشرج..

– أنتوا نسيتوا إننا جينا من غير هدوم ولا أي حاجة.. في مول هنا في السوق التجاري.. هننزل نشتري منه كل اللي ناقصنا.

– هو احنا هنقعد هنا كتير؟

قالتها ليلة مستفهمة، فنظرت فيروز إليه مترقبة إجابته..

– لحد ما فيروز تحب!

فبدا على ملامحها بعض الراحة، وهي تنقل نظرها بين ليلة وإلياس..

ذهبا إلى السوق وابتاعا كل ما ينقصهم، وفي طريق عودتهم كانت فيروز تغط في نوم عميق.

- وبعدين يا إلياس.. هنتصرف ازاي؟

- تفتكري تكون الست دي فعلًا مش أمها!

- الست دي فيروز تعرفها كويس.. وواضح إنها خايفة منها أوي.. واضح إن في سر كبير في الموضوع دا!

- زهقتِ؟

قالها بغتة وبنبرة حانية أربكتها، فقالت بخفوت: زهقت من إيه؟

ابتسم إلياس لفَهمها مقصده، ثم قال بمشاكسة: من فيروز مثلًا! أو من المتطفل اللي دخلك في القصة من أولها.

لم ترد عليه واكتفت بنظرة تحمل الكثير من المعاني..

وصلا إلى الفندق وذهبا كل منهما إلى غرفته، وضعت ليلة فيروز في فراشها واتجهت لتأخذ حمامًا دافئًا علَّه يزيل أثر كل تلك الأحداث المرهقة..

ارتدت ملابسها الجديدة وقد شعرت بالراحة تزحف على جسدها باستحياء، وطلب عقلها هو الآخر بعض الراحة، فاستسلمت لنوم هادئ استحقه جسدها بعد طول عناء، وكذلك كان حال إلياس.

استيقظ إلياس مبكرًا كعادته، وقد ارتاح جسده بعد إرهاق شديد، فقرر أن يكافئ عقله بالخدر اللذيذ الذي يعشقه ويمنحه فنجانًا من القهوة، نهض من فراشه واتجه إلى شرفة الغرفة كي يستقبل هواء الصباح المنعش ويلقي نظرة على مدينة أسوان الساحرة التي طالما سمع عن روعتها، وكأنها هدية سماوية تتمتع بها مصر وحدها..

وجد ليلة وقد استيقظت هي الأخرى..

- صباح الخير.. صاحية بدري!

- ماتعودتش أنام كتير.

- تشربي معايا قهوة؟

- أكيد مش هقول لا..

- أنا عاوز أقول حاجة بس خايف من رد فعلك..

- إيه؟

- احنا محتاجين نقعد ونتكلم قبل ما فيروز تصحى، وأكيد مش هينفع ننزل ونسيبها، فيعني لو ممكن..

- نقعد ونتكلم في بلكونة أوضتنا.. صح؟

- ممكن؟

- ما هو في وسط كل الأحداث الغريبة اللي بتحصلنا دي أكيد ممكن يعني.

ابتسم إلياس، وقال: طيب أنا هنزل أجيب القهوة..

ممكن تختاري لينا أغنية على ذوقك بقى نسمعها على ما أطلع..

نظرت ليلة إلى السماء مبتسمة وتنهدت بعمق ثم اتجهت إلى الغرفة سريعًا كي تبدل ملابسها بأخرى مناسبة، وعندما انتهت كان إلياس قد وصل.

- ها.. جهزتِ الأغنية؟

- آه.

قالتها وهي تفتح هاتفها، وسرعان ما صدحت موسيقى مميزة يعشقها إلياس تبعها صوت يشبه الكمان في حدته وشجنه وصوته المميز الذي يمس أوتار القلوب..

"أنا بعشق البحر زيك يا حبيبي حنون..

وساعات زيك مجنون ومهاجر ومسافر..

وساعات زيك حيران وساعات زيك زعلان..

وساعات مليان بالصبر أنا بعشق البحر.."

وقف إلياس بحركة مسرحية و مد يده إلى ليلة قائلًا:

سعيدة يا هانم.. تسمحيلي بالرقصة دي؟!

"أنا بعشق السما..

علشان زيك مسامحة..

مزروعة نجوم وفرحة..

وحبيبة وغريبة وعشان زيك بعيدة..

وساعات زيك قريبة بعيون متنغمة..

أنا بعشق السما.."

كانت ليلة كالمنومة مغناطيسيًا فاقدة السيطرة، وقد تولى إلياس زمام كل شيء، انتهت الأغنية ومعها الرقصة، وجلسا يحتسيان القهوة في صمت مزيف، فحتى وإن سكت لسانهما، فحديث القلوب كان مشتعلًا.

تنحنح إلياس بعدما انتهيا من القهوة، وقال: أنا جبت الموبايل و ورقة وقلم عشان نرتب أفكارنا ونحاول نوصل لحل اللغز دا..

- تمام.

- دلوقتي أمل إبراهيم دي أنكرت إن بنتها تايهة ورغم كدا واضح إن فيروز تعرفها..

- طيب احنا ممكن نتواصل مع الناس اللي كتبوا في التعليقات

إنهم يعرفوها

– للأسف.. أمل اتواصلت مع إدارة الصفحة وأكدت ليهم إن بنتها معاها وإن دا مقلب سخيف.. فمسحوا الصورة.

– يبقى نحاول على صفحتها هي.. كاتبة أي معلومات شخصية عنها؟!

– للأسف بردو لا..

أصيبت ليلة بخيبة أمل وتركت القلم من يديها، فقد بات الأمر معقدًا، لكن إلياس ما زال ممسكا بهاتفه يعبث به، حتى بدا على ملامحه التركيز مرة ثانية

– في إيه؟

– في حد كان باعتلي رسالة وماشوفتهاش.

نهضت ليلة من مكانها وجلست بجواره مباشرة كي تقرأ معه المكتوب..

– دي بتقول إنها تعرف أهل والد فيروز!

– اكتبلها بسرعة يا إلياس تعرفهم ازاي ونتأكد منين إنها تعرفهم فعلًا!

وفي ذات اللحظة كتب لها إلياس ومن حسن حظهما أن الفتاة

رأت الرسالة في وقتها..

- البنت اسمها فيروز محسن الدسوقي عندها تلت سنين.. أنا أعرف عمتها كانت معايا في الجامعة.. دا رقمها تقدروا تكلموها وتتواصلوا معاها.

يقرأ إلياس ما تكتبه الفتاة وهو يفكر وتشاركه ليلة..

- طب نسألها عن بلدهم طالما تعرف عمتها!

وعندما سألاها أنكرت معرفتها..

- ازاي عارفة اسمها ورقم موبايلها وماتعرفش هي منين!

- بتقول كانت زميلتها في الجامعة وكانت ساكنة في المدينة الجامعية

- طيب اسألها اسم عمتها ايه؟!

أخبرتهما الفتاة المجهولة أن اسم عمة الفتاة تدعى نورا، حاول إلياس الاتصال بها عدة مرات، لكن هاتفها كان مغلقًا.

أخذت ليلة الهاتف كي تقرأ المحادثة مرة ثانية علها تصل إلى شيء جديد

وفجأة صاحت بتعجب..

- إلياس! صفحة البنت اللي كانت بتكلمنا اتقفلت!

***

أول صباح في منزل الدسوقي بعد وفاة محسن صباح حزين للغاية.

يقول البعض إن من أكثر لحظات الفراق قسوة و ألمًا هو صباح أول يوم بعد الفراق؛ تستيقظ فتجد كل ما حدث كان حقيقيًّا، وليس مجرد كابوسًا كما حاول عقلك البائس إقناعك ليلة أمس كي تهدأ وتغفو..

استيقظت النساء مبكرًا لإعداد الطعام وتحضير البيت لاستقبال المعزيين، حضرت والدة معاذ والتي تعتبر محسن ابنها الآخر نظرًا لطول صداقته بمعاذ..

قالت بصوت مبحوح من أثر البكاء موجهة حديثها لنورا: نورا يابنتي.. معاذ هيروح مني ومش عارفه أعمله إيه..!

من امبارح يا ضنايا وهو حابس نفسه في الأوضة.. لا أكل ولا شرب حاجة..

قالت نورا من بين دموعها وقد تورمت عيناها: محسن كان بيحب معاذ أوي..

كان صاحبه الوحيد.

شعرت والدة معاذ بالندم لنبش جرح ما زال ينزف، فاحتضنتها

بحنان بالغ، وهي تتمتم داعية لمحسن بالرحمة..

مرَّ الوقت سريعًا وبدأ توافد الأقارب، وامتلأ البيت الكبير وعلا صوت الشيخ مشاري العفاسي مرتلًا بصوته العذب آيات من القرآن الكريم تهدأ النار الملتهبة التي تنهش قلوبهم.

كانت نورا تبكي بحرقة شديدة وهي تحتضن إلهام حتى رأت معاذ يتجه ناحية المطبخ، أشارت لها والدته بعينيها، فنهضت نورا لتتبعه، فلحقت بها.

- أنا عارفة إنه كان غالي عليكوا بس عشان خاطري كدا هتقعوا من طولكوا.. أنا هخرج واسيبكوا عشان خاطري تاكل حاجة يا بني.. دا أنت من امبارح معدتك فاضية وصاحي من بدري..

قالتها وتركتهم وأغلقت الباب عليهما..

اقتربت نورا من معاذ وما زالت تبكي، وقد زادها البكاء جاذبية وسحر من نوع خاص، وقبل أن تتفوَّه بشيء احتضنها معاذ وهو يسمح لعبراته بالسقوط..

انهار تمامًا بين يديها، وكلما ضمته أكثر إلى قلبها يزداد انهياره وهو يتفوَّه بكلمات متقطعة لم تنتبه لها وسط البكاء..

- أنــا.. المسؤول.. محسن.. خاين.. خاين.. أنا السبب.. ياريتني.. ياريتني.. أنا..

ازداد تعلقه بنورا وقد تحولت ضمته إلى تشبث بها، وكأنه غريق..

استقبلته نورا بين أحضانها استقبال أم لطفلها التائه، وباتت تربت بيد على ضهره وبالأخرى على شعره، وهي تبث في أذنيه بعض الكلمات كي يهدأ، ظل الوضع كما هو عدة دقائق حتى هدأ معاذ نسبيًا، فجلسا على أقرب مقعدين وما زالت نورا تحيطه بذراعيه، ثم قالت من بين دموعها: معاذ.. لازم تاكل حاجة.. عشان خاطري!

- مش قادر يا نورا!

- أنا مليش غيرك يا معاذ ومش هستحمل أشوف فيك حاجة وحشة.

انقبض قلبه إثر هذه الجملة، فتمسك بيديها بقوة وهو يقول: هتاكلي معايا؟

- بس بشرط.. هأكلك أنا.

وافق معاذ على الفور، فتركته نورا وقامت لتضع بعض الأطباق على طاولة الطعام الصغيرة الموجودة في المطبخ، ثم جلست بجواره من جديد وبدأت تطعمه بيديها، أما هو فحاوط خصرها بيديه وأراح رأسه على كتفها تاركًا إيَّاها تحتوي وجعه وتداويه بطريقتها الخاصة.

- أنا شبعت خلاص.

- شبعت إيه يا معاذ لسه الطبق مليان!

قالتها بحنان جارف أشعل مشاعره، فأخذ ملعقة الطعام من يديها ووضعها مرة أخرى في الطبق.

- نورا!

قالها بصوت هادئ يشع حبًّا..

- أنا بحبك أوي.. ممكن تستحمليني؟

ثم لثم باطن كفها بحنان، نظرت له بوَلَهٍ حقيقي تحاول إيجاد كلمات مناسبة، فلم تجد أصدق من ضمتها له.

عادا للمعزيين مرة ثانية، وقد أتت بعض صديقات نورا لتعزيتها، فأخذتهم نورا لغرفتها في الطابق العلوي..

- موبايلك مقفول من امبارح قلقتينا عليكِ أوي!

- أنا انشغلت والله وماخدتش بالي منه خالص.

- طيب اشحنيه يلا عشان نبقا نطمن عليكِ واجمدي كدا!

- ربنا يكون في عونكوا يا نورا.. احنا مش هنطول عليكِ عشان نسيبك للغرب.

- لا خليكوا شوية أنا ما صدقت..!

تشبثت نورا بصديقاتها كي تهرب ولو قليلًا من الحزن المسيطر على المنزل وعلى جميع من فيه، فقد كانت بحاجة إلى بعضٍ الراحة كي تستطيع المواصلة ومساندتهم، تركت هاتفها موصلًا بالتيار الكهربي وكان ما زال مغلقًا..

رحلت الصديقات و ودعتهم نورا على أمل لقاء آخر قريب، فهي في أمس الحاجة إليهم.

ذهبت لتطمئن على الجميع، فوجدت أن والدتها وخالتها وزوجة خالها يجلسن مع إلهام، بينما انصرف الجميع، أما الرجال فما زالوا في صوان العزاء الخارجي.

قررت نورا أن تذهب لغرفتها طالبة بعض الهدوء والراحة قبل أن تعود النساء ثانية بعد الصلاة.

فتحت هاتفها وأرسلت رسالة إلى معاذ تطمئنه أنها معه في تجاوز تلك المحنة، لكنها فوجئت برسالة من رقم مجهول حاول الاتصال بها مرات عديدة، تعجبت نورا، لكنها ظنتها إحدى صديقاتها لتقوم بتعزيتها، وقبل أن تغلق هاتفها وتضعه بجوارها رن الهاتف ثانية بنفس الرقم.

الفصل السادس

كانت ليلة جالسة على المقعد ضامة رجليها إلى صدرها، وتستند بإحدى يديها على سور الشرفة مرسلة نظرها إلى لا شيء، تفكر في كل ما حدث لها وما يحدث الآن من مشاعر تنمو داخلها على استحياء، لكنها تصرخ باسم إلياس..

تنهدت ليلة بأسى وهي تتذكر ما حدث لها منذ سافرت مع الوغد الذي كان يدعى زوجها وما فعله بها، وكأنه لم يكتفِ بسلب أموالها وميراثها ومستقبلها، بل سلب منها نفسها وروحها وأبسط حقوقها كإنسانة وكزوجته، فاغتصبها بعنف حيواني ليلة وصولهما إلى دبي، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فبات يعذبها ويضربها كل يوم بلا أي سبب.. يذهب إلى عمله نهارًا ويتركها مقيدة بقيد طويل في الغرفة التي يغلق بابها جيدًا كي يترك لها حرية التحرك داخل حدود الغرفة فقط..

تاركًا لها بقايا طعام وماء، وحين يعود يبرحها ضربًا أو يكرر فعلته القذرة ويغتصبها.

وفي ليلة معتمة عاد من الخارج وقد بدا مخمورًا.. يترنح ويتفوَّه

بعبارات بذيئة بلا وعي، كبلها في الفراش وبدأ في اغتصابها بعنف وسادية، وكلما علا صراخها زاد من عنفه حتى أصبحت تصرخ بلا انقطاع، وفجأة انقطع صراخها وسكنت تمامًا.

انتبه لها وجدها غارقة في دمائها، وقد ازرق وجهها، هلع لمنظرها وارتدى ملابسه وهرول إلى الخارج هاربًا ظنًّا منه أنها ماتت.

كان يقود سيارته بسرعة جنونية وما زال الخمر يلعب برأسه وهول الموقف يتلاعب بأعصاب يديه وقدميه.

تشوشت الرؤية فجأة وفقد السيطرة على السيارة وعلى أطرافه وفي لحظات دهسته سيارة ضخمة.

في تلك الأثناء كانت ليلة تنقل إلى المشفى بعدما رآه حارس العمارة يخرج هاربًا بتلك الهيئة الجنونية، وقد صدقت ظنونه ووجد ليلة في حالة يرثى إليها.

مكثت ليلة بالمشفى أسبوعًا في غيبوبة إثر ما تعرضت له، وبعدما عادت للوعي عرفت أنه تعرض لحادث مروع أودى بحياته في وقتها، والآن أصبحت جميع ممتلكاته ملكها.

- ليلة!

عادت من شرودها على صوت إلياس القلق، فنظرت له باستفهام ليقول:

أنتِ كويسة؟ بتعيطي ليه!

لم تجد إجابة، فتلك الذكريات البشعة ما زالت تؤلمها وتنغص عليها حياتها التي تريدها أن تبدأ.

اقترب منها إلياس، ثم قال: ليلة؟ أنا معاكِ.

انهارت باكية، وقد علت شهقاتها..

ارتبك إلياس وقبل أن يضمها إلى صدره ليخبرها كل ما يعتمل بداخله استيقظت فيروز التي هرعت إلى ليلة فزعة وقالت بصوت طفولي مستنكر ووجه صارم بدا مضحكًا للغاية: أنت زعلتها؟

قالها إلياس باندفاع وهو ينفي التهمة عنه: لا والله ما حصل!

- لا زعلتها.

ثم التفت إلى ليلة وهي تربت على رأسها بحنان وتمسح بيديها دموعها قائلة: خلاث عشان خاطري بقى!

وهكذا ببساطة توقفت ليلة عن البكاء وسط نظرات إلياس المندهشة..

هدأت ليلة وهي تقول لفيروز بصوت ما زال متأثرًا من البكاء: صباح الخير يا يوزة!

- "ثباح" الفل.

- طب وأنا مليش صباح الفل يا يوزة؟

- لا.

قالتها فيروز بغضب مصطنع أضحك ليلة كثيرًا، ثم استكملت فيروز موجهة حديثها إلى إلياس: انزل هاتلنا فطار و حواوة.. يلا!

ضحكا بشدة، ثم قال إلياس بقلة حيلة: أمرك يا ست فيروز.. هروح أجيبلكوا فطار على ما تجهزوا عشان هنخرج كمان ساعة.

خرج إلياس لتنظر فيروز إلى ليلة تتأكد أنها توقفت عن البكاء.

فقالت ليلة: يوزة مش احنا اصحاب وبنات زي بعض؟

- آه.

- ممكن نتكلم في سر بينا احنا الاتنين بس؟

- آه.

نجحت ليلة في جذب انتباه فيروز، فقالت: في واحدة صاحبتي جميلة أوي بس زعلانة على طول وعلى طول بتعيط..!

- ليه تعيط؟

- عشان اسمها.. بتقول اسمها وحش أوي وبشع ونفسها تغيره.. مع إن اسمها جميل ومعناه حلو أوي..

- هو في اسم وحش؟

- لا هي كل الأسماء حلوة.. بس في ناس مش بتحبها اسمها زي نورا صاحبتي..

- اسمها نورا!

قالتها باندفاع طفولي، وكأنه اسم مألوف لها، فتابعت ليلة وقد نجح مخططها: آه.. طب مش أنتِ شايفة إنه اسم حلو؟

- أيوة حلو أوي أوي أنا بحبه وبحب كمان اسم نوارة.. هما أصحابي..

تهللت أسارير ليلة وهي تقول باندفاع: بجد يا فيروز.. يعني أنتِ تعرفي نورا ونوارة؟ تعرفيهم منين؟

أثار اندفاع ليلة خوف فيروز، فتبدلت ملامحها والتزمت الصمت.

أصيبت ليلة بخيبة أمل وهي تحاول معها ثانية، لكن بلا جدوى..

عاد إلياس بالطعام ووجدهما على نفس الحال، فقال بحزم: مش أنا قولت اجهزوا على ما اجي!

نظرت له ليلة بخيبة أمل وهي تهز رأسها، بينما فيروز أطرقت رأسها للأسفل ودموعها تسيل في صمت!

- مالك يا فيروز؟ ليلة زعلتك؟

لم تجب فيروز وفشلت كل المحاولات، فأخذ إلياس ليلة بعيدًا عنها لتخبره بما حدث، انكمشت ملامحه وهو يفكر في الأمر، ثم انتبها إلى فيروز التي يبدو على وجهها أنها تعاني من صراع ما.

لمعت فكرة في رأس إلياس، فقال بصوت عالٍ وهو يراقب ملامح فيروز: فاكرة يا ليلة الست اللي قالوا إنها مامت فيروز؟

- آه فكراها مالها!

- مش أنا عرفت إنها سافرت برا مصر بعيد خالص، ومش هتيجي هنا تاني أبدًا.

- معقول! أنتَ متأكد؟

- آه والله متأكد حتى شوفت صورتها وهي برا قالت مستحيل ترجع هنا تاني مهما حصل.

ظهر على وجه فيروز معالم الهدوء والراحة، ثم قالت بتردد: يعني هي مشيت بجد؟

تهللت أسارير ليلة وقد نجح المخطط، فاقتربت منها وقد سبقها إلياس وضم فيروز إلى صدره وهو يجلسها على رجليه.

- آه والله يا فيروزة.. مش أنت بتثقي فيّ وبتصدقيني؟

- آه.

- أنتِ عاوزاها ترجع تاني؟

- لا!

قالتها بسرعة وغضب..

- طب ليه؟

- وحشه أوي.

قالتها فيروز وهي تبكي من جديد..

- طيب قوليلي هي عملت إيه وأنا أوعدك مش هخليها تقرب منك أبدًا.

- بجد؟

- أنا وليلة.

قالها وهو ينظر إلى ليلة كي تقترب وتحاوط الفتاة بيديها لتبثها المزيد من الأمان والطمأنينة، وقد نجح الأمر.

- هي مشيت وأنا عند القطر.

- يعني هي كانت معاكِ في المحطة؟

- آه.

- طب مشيت ليه؟

- قالتلي... قالتلي إنها مش عاوزاني تاني.. وهو كمان مش عاوزني..

تلعثمت فيروز وهي تبكي وترتعش فاحتضنها إلياس وربت ليلة على رأسها تمرر يديها بين خصلات شعرها كي تهدأ، فتابعت: قالتلي أروح قريب منك وأعيط وأنت طيب ومش هتسيبني.

- أنا؟

قالها إلياس بصدمة!

- آه قالت أنت طيب.. وهي خلاث مبقتش مامي تاني!

- مامي!

هتفت بها ليلة غير مصدقة ما يحدث، فقالت فيروز: آه..

- قالتلك إيه كمان يا يوزة؟

- قالتلي..

قالتلي إنها اتخانقت مع بابي وأنا سمعته وهو بيقولها مش عاوز فيروز تاني خالص أبدًا مليش دعوة..

- سمعتيه ازاي؟ هو بابي كان معاكوا؟

- لا. . أنا وهي بس.. سمعته على تسجيل الموبايل.

- طب ليه قولتِ أسوان!

- هي قالتلي كدا.. قالت لو شاورت عليها... هترميني تحت القطر!

استنكرت ليلة بشدة، أمَّا إلياس لم يستوعب بعد أن طفلة مثل فيروز قد تعرضت لكل هذا على يد أهلها!

احتضناها بشدة مكتفيين بهذه المعلومات، فهي طفلة صغيرة وكل ما يحدث خطر عليها.

- بصي بقى أنتِ وهي.. أدامكوا ربع ساعة تجهزوا فيها و إلا هخرج اتفسح واسيبكوا هنا محبوسين في الأوضة!

- لالالا احنا هنلبس بسرعة خالص صح يا يوزة؟

أومأت برأسها موافقة، فقال إلياس: لا تقريبًا كدا يوزة مش عاوزة تخرج.

- لالا عاوزة.. هلبس أهو.

وفي غضون نصف ساعة كانت الفتاتان في أتم استعدادهما، ارتدت فيروز بنطالًا ذا أرجل واسعة قصيرة أسود اللون، وعليه بلوزة قصيرة من نفس اللون والخامة، وصففت ليلة شعرها واضعة فوقه طاقية بيضاء، فبدت في غاية الروعة، وقد برزت هذه الثياب ملامحها الطفولية البهية ولون بشرتها البيضاء.

أما ليلة فارتدت ثيابًا تماثل ثياب فيروز مع بعض الاختلافات

البسيطة، لكن أصرت فيروز أن ترتدي ليلة طاقية بيضاء مثلها.

نظر إليهما إلياس وأبدى إعجابه الشديد بصافرة مشاكسة، ولكن تركز نظره أكثر على ليلة، فلأول مرة يراها كطفلة هاربة في جسد أنثوي صارخ، كانت متوسطة الطول متناسقة القوام، شعرها كستنائي مموج يعكس سحر عينيها البنية الواسعة ذات الأهداب الكثيفة الطويلة..

لاحظت ليلة تدقيق إلياس بها فتوردت وجنتاها مما جعلها تبدو كأميرة من أميرات ديزني.

- إيـــــه!

قالتها فيروز بحنق وقد سأمت ذلك الصمت المطبق..

- إيه بس؟!

قالها إلياس متنهدًا وما زال نظره معلقًا على ليلة..

أشارت له بعينيها، فقال: اسمعوا.. أنا لاقيت فيه فوج رحلة هنا عاملين برنامج جميل وأنا اتفقت إننا نتحرك معاهم في الأتوبيس، بحيث نبقى نعرف نتفسح كويس ونشوف أماكن كتير هنا.

- طيب!

قالتها فيروز بملل، بينما قالت ليلة هامسة: إلياس! فسح إيه بس؟! أنت نسيت احنا هنا ليه؟!

- ليه؟!

- فيروز يا إلياس!

- تقدري تقوليلي هنفضل احنا في الأوضة بنعمل إيه؟! طالما اتحطينا في ظروف يبقى لازم نستمتع بكل ثانية بتعدي حتى لو كانت صعبة..

دا عمر يا ليلة..

قالها وهو يقودهما إلى حيث الأتوبيس، وبدأت أولى جولاتهم في مدينة أسوان الساحرة.

استقر الجميع في مقاعدهم، وبدأ المرشد السياحي في الترحيب بهم وتعريفهم بـمعبد فيلة الذي سيذهبون إليه بعد قليل..

الفصل السابع

هذا المعبد المخصص للإلهة إيزيس، والذي أغرقته مياه النيل وتم تقسيمه وأعيد تجميعه في موقع جديد فوق جزيرة إجيليكا على بعد حوالي ٥٠٠م من مكانه الأصلي بجزيرة فيلة، ويضم مبانيه معبداً لـ "حتحور" ويمكن للزائر مشاهدة عرض الصوت والضوء ليلًا الذي يقدم بلغات مختلفة.

إنها الآثار الفرعونية الساحرة، ولكن أسوان تضفي سحرًا خاصًّا بصفاء نيلها الرائع.

بدت ليلة مستمتعة منبهرة بحديث المرشد السلس وكذلك إلياس، حتى فيروز أظهرت اندماجها مثلهم حتى وإن كانت لا تفهم شيئًا، وصلوا إلى المعبد وتجولوا بداخله والتقط إلياس لهم عدة صور بجوار أعمدته الشهيرة والحوائط الفرعونية بنقوشها الهيروغليفية، ولم يغفلا عن التقاط صورة وهم خلفهم نهر النيل.

انغمسا كليًّا في تفاصيل المعبد، حتى فيروز التي كانت تصفق بجذل كلما طلب منها أحد السائحين صورة معها.

عادا إلى الفندق مرهقين تمامًا، وفي طريقهما إلى المطعم لتناول

الغذاء رن هاتف إلياس معلنًا وصول رسالة جديدة..!

- إلياس.. موبايلك بيرن.

فتحاه بلهفة وقد تأكدت ظنونهما...

رقم نورا متاح الآن ويمكنهما الاتصال بها.

وبسرعة شديدة اتصلا بها، وقد اتفقا ضمنيًّا أن تتحدث ليلة معها بحضور إلياس.

- أستاذة نورا الدسوقي؟

تعجبت نورا من إلصاق لقب جدها لأمها بها، لكنها أجابت: أيوة.. مين معايا؟

- حضرتك أخت الأستاذ محسن الدسوقي؟

اختلج قلبها واضطرب صوتها بعدما فرَّت من عينيها دمعة هاربة: أيوة.

- أستاذة نورا أنا محتاجة أقابلك ضروري جدًّا.. ممكن تعرفيني مكانك؟

- أنا مش فاهمة حاجة! أنت مين؟

في هذه الأثناء علا صوت فيروز وهي تطلب من إلياس أن يحضر لها طعامها، فهتفت نورا بلهفة وشوق: فــيــروز! فيــــــــروز!

– من فضلك إهدي ما تقلقيش.. أنا اسمي ليلة ولاقيت فيروز... ماتقلقيش هي بخير معايا.. أنا بس مش عارفة أوصلك ازاي!

– أنتِ في دمنهور؟!

– دمنهور! لا احنا في أسوان!

– أسوان! أسوان ازاي؟! أنتِ مع أمل؟

– أمل مين؟

– مامتها!

– الموضوع كبير أوي يا نورا ولازم أقابل حضرتك أو أستاذ محسن!

قالت نورا والألم يعتصر قلبها وكلماتها لا تطاوعها: محسن توفى امبارح.

– إيه؟! البقاء لله.. طيب ممكن تبعتيلي عنوانك بالتفصيل في رسالة واحنا هنحجز أول قطر ونيجي.

– طب ممكن أكلم فيروز؟

– صدقيني حاولنا معاها وهي اللي رافضة.. هتفهمي كل حاجة لما نتقابل.

- هبعتلك العنوان وأول ما تحجزي القطر كلميني من فضلك.
- حاضر.. مع السلامة.
- مع السلامة.

الفصل الثامن

انتهيا من الطعام وصعدا للغرف ثانية..

قررت فيروز النوم قليلًا، بينما جلس إلياس وليلة في الشرفة لتحليل ما توصلَّا إليه.

– يعني أنتِ شايفة إننا نرجع على دمنهور على طول؟

– أيوة يا إلياس لازم.. أنت شايف إيه؟

– أنا شايف إننا نقعد يومين نكمل برنامج الرحلة وبعدين نمشي.. مش هنخسر حاجة!

– والبنت الغلبانة دي مش مفروض تروح لأهلها!

– أهلها مين يا ليلة! أنتِ شايفة القصة معقدة ازاي! هي نفسها أصلًا مش قابلة أي كلام.. أنا شايف إن دا أنسب حل حتى نفسية البنت تتعدل لحد ما نوصل لنورا دي.

– طيب ممكن تحجز تذاكر القطر من دلوقتي عشان مايحصلش أي حاجة تأخرنا؟

– آه ممكن.

قالها بابتسامة مريحة وهو يضع يديه خلف رأسه، ويعود بظهره إلى الخلف ناظرًا إلى ليلة عاد خجلها من جديد.

بعد هذه المكالمة العجيبة هاتفت نورا معاذ وطلبت منه أن يتقابلا في حديقة سمية في غضون دقائق، وقد كان.

- إيه يا نورا في إيه؟

- جالي مكالمة غريبة أوي يا معاذ.. واحدة معرفهاش معاها فيروز.

- نعم! هي مش مع مامتها؟!

- مش عارفة بقى.. أنا سألتها على أمل قالتلي إنها ماتعرفهاش أصلًا!

- أنا مش فاهم حاجة!

- ولا أنا وموبايل أمل على طول مقفول، حتى إيميل الفيس بوك بتاعها مقفول!

- طب أنتِ قولتليها إيه؟

- بعتلها العنوان وقالت أول ماتحجز القطر هتبلغني.

- قطر إيه؟ هي في اسكندرية؟

- ياريت.. دي في أسوان.

- أسوان! تفتكري دي لعبة من أمل؟

- هتجنن مش عارفة وصلت لرقم موبايلي ازاي! وبتقولي نورا الدسوقي،

أنا خلاص مبقتش عارفة أفكر وتعبت من كل حاجة.

دخلت نورا في نوبة بكاء، ولم تلحظ توتر معاذ وارتباكه الشديد، فظل صامتًا بجوارها يفرك يديه بقلق.

وفي المساء بأسوان خرج إلياس بصحبة نورا وفيروز.. جلست نورا على إحدى المقاعد بالكورنيش تنظر إلى النيل بهيام وغرام، بينما ذهب إلياس وفيروز لإحضار الطعام من مطعم شهير قريب.

تنهدت ليلة بقوة وأخرجت هاتفها لتدير مقطعًا بعينيه رأته ملائم تمامًا لرائحة أسوان، فهلَّ صوت الخال يشدو بشجن:

"الجوهرة المصونة..

والدرة المكنونة..

زوجتنا فاطنة أحمد عبد الغفار..

يوصل ويسلم ليا..

في منزلنا الكاين في جبلاية الفار..

أسوان... الرسالة ١

أما بعد.. لو كنت هاودت كسوفي ع التأخير

سامحيني يا فطنة في طول الغيبة عليكم..

وأنا خجلان.. خجلان.. وأقولك يا زوجتنا أنا خجلان منكم..

من هنا للصبح..

شهرين دلوقت..

من يوم ما عنيكِ يا فاطنة.. بلت شباك القطر..."

وقبل أن يكمل قطع صوته إلياس وهو يهتف بحماس: جوابات الأسطى حراجي؟

- آه.. تعرفها؟

- بـعـشـقـهـا.

مرَّ يومان دون جديد يذكر، فإلياس وليلة وفيروز يزورون معالم أسوان ما بين جزيرة النباتات ومتحف النيل والسد العالي، وليلًا يتسكعون على الكورنيش تضحك فيروز على مشاكسات ليلة وإلياس التي لا تنتهي، بينما يزداد رباط الوصل بين قلبيهما قوة في كل ساعة تمضي وهما معًا.

وفي اليوم الأخير لهم حيث تقرر سفرهم في القطر ليلًا بعد قضاء اليوم بأكمله في القرية النوبية.

استيقظت ليلة متحمسة، فلقد سمعت كثيرًا عن بهاء القرية النوبية وزاد شغفها لزيارتها، وارتدت ملابسها وهي تكاد ترقص فرحًا، فقد صادف اليوم أيضًا ذكرى يوم مولدها.

انتهت بعد نصف ساعة كاملة، وقد حمدت الله أن فيروز باتت ليلتها في غرفة إلياس.

أمسكت هاتفها لتوقظه، لكنها فوجئت بأنه ترك لها رسالة أن تذهب مع البقية في الفلوكة النهرية التي ستوصلهم إلى القرية وتمنَّى لها زيارة سعيدة، فقدت حماسها واحتل قلبها حزن شديد، وتحركت مع فوج الرحلة، ورُغم ذلك سحرها منظر النيل، من لم يرَ النيل في أسوان لم يرَ النيل في حياته من قبل.

وصلوا إلى القرية بعد وقت قليل تمنَّت ألا ينتهي أبدًا، وقفت تنظر إلى النيل نظرة مطولة وكأنها تودعه.. شردت قليلًا تقارن بينه وبين بحر الإسكندرية ثم أفاقت لتجد نفسها وحيدة على الفلوكة وقد ذهب الجميع!

تحركت سريعًا وصعدت الدرج لتصل إلى القرية النوبية التي توجد مرتفعة عن سطح المياه، وجدت بيتًا ذا ألوان مبهجة ورجل بشوش في استقبالها عرفت أنه صاحب البيت الذي يعد مزارًا سياحيًّا هامًّا في أسوان، رحب بها وأخبرها أن عليها الدخول أولًا لحضور حفلة الاستقبال النوبية وأمر أحد الفتيات أن تأخذها

معها.

أخذتها الفتاة في غرفة داخلية وجدت بها زيًّا نوبيًّا ارتدته، وجلست الفتاة تصفف لها شعرها على الطريقة النوبية وأخرى تنقش لها الحناء على يديها.

كانت ليلة في حالة من النشوة والسعادة، وكأنها مغيبة عن العالم وفقط تمتثل لأمرهم.

انتهوا جميعًا وخرجت ليلة من الغرفة وهي تظن أن تلك هي حفلة الاستقبال، لكنها فوجئت بإلياس وفيروز وأهل البيت النوبي وباقي الفوج يغنون لها بمناسبة عيد ميلادها.

لم تغفل نظرة إلياس لها وهي بالزي النوبي، بينما نظرت له نظرة معاتبة، لكنها عاشقة.

بدأ أطفال البيت في الغناء لها على الطريقة النوبية ممسكين بيديها لتتمايل معهم على ألحانهم، شاركها إلياس الرقص وقد سكت لسانه بينما تولت عيناه مهمة إخبارها بكل شيء، وما أن ذهب الجميع لجولاتهم السياحية أخذها إلياس من يديها وتحرك بها سريعًا، شاهدا كل معالم القرية النوبية.. ركبا الجمل والتقط لها عدة صور بجوار الجدران المزخرفة التي تشتهر بها، ضحكت ليلة كما لم تضحك من قبل، وفي نهاية الرحلة تعمد إلياس أن يتأخرا حتى ركب الجميع وبدأت الفلوكة في التحرك..

- عرفت عيد ميلادي منين؟

- ساحر!

- بجد يا إلياس بقى.

- بطاقتك يا ليلة أنت نسيتِ إنها معايا.

- إلياس! الفلوكة مشيت!

- عارف... يلا بينا!

- على فين؟!

في تلك اللحظة وصلت فلوكة أخرى اتجها إليها وعلى وجهه ابتسامة واثقة، كانت الفلوكة مزينة وكأنها أعدت لها خصيصًا، تتدرج ألوانها من الأزرق القاتم إلى النيلي، وتزينها الورود من كل جانب نظرت ليلة حولها غير مصدقة كل ما يحدث وطلب إلياس من المراكبي أن يبدأ الرحلة التي اتفقا عليها، وفي اللحظة ذاتها تعالى صوت عبد الوهاب يشدو ، ويضفي سعادة فوق السعادة..

"امتى الزمان يسمح يا جميل...

واسهر معاك على شط النيل.."

- لحقت تعمل كل دا امتى؟

- مكنش ينفع أعدي أول عيد ميلاد ليكِ معايا كدا.

" الجو كله سكون والورد نام على الغصون..

والقمر طالل علينا.. والعزول غاب عن عينينا "

- إلياس.. مش عاوز تقولي حاجة؟

- أنا قولتلك خلاص.

- بس أنا ماسمعتش.

- مش لازم ودانك تسمع.. المهم إن قلبك سمع.

- يا سلام.. وأنت متأكد كدا ليه؟

- عشان عينيك قالتلي.

- وعيني قالتلك إيه كمان؟

- نفس اللي عيني قالتهولها.

- إليـــــاس!

- بـحـبـك يا لـيـلة.

" والموج بيحكي حكاية للشط مالها نهاية..

وأنا والجميل قاعدين سوا..

على شط النيل... "

الفصل التاسع

أما في منزل الدسوقي، فقد هدأت لوعة لحزن نسبيًّا، فعاد سالم يباشران أعمالهما، وتجمعت السيدات يوميًّا في الطابق الخاص بها.

وحده الدسوقي ظل يكابد آلامه وحيدًا، وكأنهم بدون قصد اتفقوا على توجيه التهمة له، فهو صاحب القرار الأول والأخير.

آلمته هذه الخاطرة بشدة، وظل حبيس غرفته منقطعًا عن الجميع حتى سمع دقات بابه تتعالى.

سمح بالدخول، فوجد ابنتيه وزوجتي ولديه وأحفاده يحتلون غرفته بشوق وعتاب خفي.

كان يجلس على فراشه فأخذت فتحية يمينه وجوارها إلهام أما محروسة فكانت على يساره وبجوارها هدى، وبالطبع نوارة "حبيبة جدو " أخذت مكانها بين ذراعيه، بينما تفرق باقي الأحفاد على أطراف الفراش.

احتضنوه دونما كلام، وفرَّت دمعاتهم هاربة حتى قالت هدى:

الغدا هيكون جاهز بعد ربع ساعة على ما يرجع سالم و حسن، ومش هناكل من غيرك يا حاج.

- أومال نورا فين؟

- قاعدة مع معاذ برا في الجنينة يا جدي.

كانت نورا قلقة بشأن عودة فيروز ومقابلة ليلة.. لم تخبر أحدًا بهذه القصة، فقد ظن الجميع أن فيروز مع أمل، ولم يجرؤ أحدٌ على الحديث عنها، وكأنها سبب كل المصائب التي حلَّت على الأسرة.

وجدت نورا أن معاذ هو ملاذها الذي لجأت إليه في تلك الورطة، لكن معاذ كان يرتبك بشدة كلما أتت تلك السيرة.

- مش عارفة أعمل إيه يا معاذ؟!

- لازم تقابليهم عشان نفهم اللي حصل!

- أقابلهم؟ أنت مش هتبقى معايا!

أنا آسف يا نورا.. مش هقدر! -

قالها بألم فسرته نورا بعلاقة معاذ بمحسن وبصعوبة الموقف عليه، فتعاطفت معه:

-خلاص يا حبيبي أنا هقابلهم!

قالتها بحنان وهي تربت على يديه بحب، فتأملت ملامح معاذ، وكان على وشك إخبارها بالحقيقة، لكن ماذا سيقول لها!

كان محسن غاضبًا بشدة من الحرب التي شنتها العائلة ضده

بشأن زواجه من نورا، فقرر المكوث في الجامعة لحين انتهاء الاختبارات، فقرر معاذ المكوث معه حتى تنتهي اختباراته أيضًا، فمحسن كان في السنة النهائية بكلية الزراعة، بينما معاذ كان في الفرقة الثالثة بقسم الهندسة المدنية.

كانت علاقة محسن بأمل علاقة زمالة عادية، لكن معاذ عندما رآها اقترح على محسن ذلك الاقتراح التعس.

- طيب ما تقولهم إنك مرتبط وبتحبها!

- آه وهي فين بقى اللي أنا مرتبط بيها؟!

- أمل مثلًا! شكل يعني في قبول، ولو اتقدمتلها ممكن أهلها يوافقوا؟

- أمل! مش عارف يا معاذ.. بس هي فكرة والله ليه لا!

- خلاص اتكلم معاها إنك معجب بيها وعاوز تتقدم وكدا وشوف.

وبالفعل تم كل شيء كما خطط له، لكن لاحظ معاذ نظرات مريبة من أمل تجاهه.

كان ذلك في السنه الدراسية الأخيرة له، وقد مرَّ على زواج أمل ومحسن بضعة أشهر قليلة.. فوجئ بها وهي تنتظره في الجامعة.

- أمل! خير في حاجة!

- ازيك يا معاذ؟!

- بخير الحمد لله!

- مستغرب كدا ليه؟!

- غريبة إنك هنا.. أنا مش فاهم في حاجة حصلت؟

- أبدًا.. كنت عاوزة اتكلم معاك.. ممكن؟

اتفضلي.. في مكان قريب من هنا ممكن نقعد فيه! -

كانت مقابلة فارغة من أيَّة تفاصيل مهمة.. أثارت فضول معاذ وغضبه في آن واحد.. يبدو أن أمل تلاطفه!

حاول طرد هذا الهاجس، لكن مع تكرار زياراتها له بعد كل اختبار تأكدت ظنونه

حتى كان وقت اختباره فوجدها في انتظاره باكية.

- أمل إيه في إيه؟ حد جراله حاجة؟!

- ماما يا معاذ ماما تعبانة أوي ومش عارفة أحركها من البيت!

- ازاي سبتيها لوحدها طيب يلا بسرعة!

وكان معاذ يعرف أن جميع عائلتها بخارج البلاد يقيمون في إحدى الدول الخليجية، بينما تقيم أمل مع والدتها في القاهرة في إحدى البنايات القريبة من الجامعة حتى يتثنى لوالدتها الاطمئنان

عليها، وقد كانت تقضي معها أغلب الأوقات بالقاهرة ثم تسافر لباقي العائلة في أوقات أخرى.

وصلا سريعًا إلى البناية وصعدا الدرج في سرعة حتى رن هاتف أمل، فقالت بلوعة مصطنعة: أيوة يا خالوا؟ يعني أنت أخدتها للمستشفى دلوقتي؟ طيب يا حبيبي شكرًا.. حاضر هجيب لها الحاجات اللي قولت عليها واجيلكوا!

- الحمد للَّه يا معاذ خالوا سبقنا!

قالتها وهي تفتح باب الشقة، فشعر معاذ بحرج شديد!

- معلش يا معاذ أنا آسفة.. ممكن بس تستناني هجيب حاجات لماما من الدولاب وانزل معاك توصلني للمستشفى.. أنت عارف مليش حد هنا وأنت أخو محسن يعني أخويا.

ازداد إحراج معاذ فوافق بتردد..

أجلسته وذهبت سريعًا إلى المطبخ أحضرت له كوبًا من العصير..

- معلش بقى أنا آسفة.. على ما تشرب العصير أكون حضرت الشنطة.

- لا ولا يهمك.. اتفضلي!

تركته وذهبت بينما كان يشرب العصير، وقبل أن ينتهي انتابه دوارًا حادًّا وباتت الرؤية مشوشة للغاية.. حاول الوقوف، لكنه

ترنح وسقط وهو ينادي عليها بصوت خافت متقطع.

أسندته بيديها حتى وصلت به إلى غرفة نومها ونفذت خُطتها الشيطانية.

بعد مرور بعض الوقت بدأ معاذ في استعادة وعيه ليجد نفسه بجوار أملٍ .. انتفض مذعورًا محاولًا تذكر أي شيء، لكن عقله كان مشوشًا للغاية، نظر إلى أمل التي ابتسمت بمكر ولم تعلق..

– هو إيه اللي حصل؟ انطقي إيه اللي حصل؟!

– أنت بردو اللي بتسأل على اللي حصل؟!

انتفض معاذ وهبَّ واقفًا بارتباك وتوتر وهو ينعتها بأبشع الصفات حتى لمعت في عينيها نظرة شرسة وهي تقول: مش أنت خليت صاحبك يتجوزني عشان يخلالك أنت الجو مع حبيبة القلب.. أوعى تكون فاكرني مش فاهمة.. أنا فاهمة كل حاجة من أول يوم.. من ساعة ما شوفتك!

–أنتِ بتقولي إيه؟ أنتِ مجنونة؟ أنتِ فاهمة أنتِ عملتِ إيه؟

– عملنا يا حبيبي.. عملنا.. جيت ورايا زي الأهبل وأنت عارف إن ماما مسافرة أصلًا!

– وأنا هعرف منين.. وأنا اعرف عنك حاجة ليه أصلًا؟!

– تعرف عني عشان عينك مني زي مانا كانت عيني منك من

أول مرة شوفتك فيها مع محسن.

– فوقي يا أمل أنا مش شايفك أصلًا! أنا خاطب لو نسيتِ وخطيبتي دي هي حب عمري كله.

ضحكت ضحكات شيطانية وقالت وهي تغمز له: أنت الخسران، بكرة تشوف مين فينا الأحلى!

اشتاط معاذ غضبًا فصفعها صفعة قوية وهو يسبها.

مرَّت ثلاثة أعوام على ذلك الموقف، حاول معاذ الاعتراف لمحسن لكنه كان يتراجع في كل مرة، حتى ولدت فيروز بعد تسعة أشهر فقط من تلك الواقعة..

– معاذ! معـــــاذ أنت معايا؟

عاد معاذ من ذكرياته الدنيئة على صوت نورا..

– – آه آه! أنا هنا.

– – طيب كنت بقولك تعالى اتغدا معانا.. احنا هنتجمع على السفرة كلنا انهاردة أول مرة!

– – لا يا حبيبتي معلش مرة تانية!

– – ماشي براحتك.

– – نورا.. ممكن أقولك على حاجة بس تكوني واثقة فيا أوي!

– – أكيد يا معاذ واثقة فيك طبعًا.. في إيه متقلقنيش؟!

تلعثم معاذ بشدة وتاهت الكلمات منه، فلم يعرف كيف سيخبرها بالحقيقة القاسية التي ربما تفقده نورا للأبد..!

الفصل العاشر

استقلوا القطار ثانية، وقد كانت رحلة العودة مختلفة تمامًا عن الذهاب، وكأنهم أشخاص آخرين..

فيروز أصبحت أكثر حيوية وطفولة ولمست أمانًا حقيقيًّا بين ذراعي إلياس وليلة، أما الأخيرة، فقد ودع الحزن عينيها وأحلَّ محله شعورًا جديدًا تعيشه لأول مرة، لكنه على كل حال أضفى على رُوحها شيئًا من الحرية والخفة التي باتت تشعرها وكأنها طير طليق يحوم أرجاء السماء دونما قيد، وكذلك كان حال إلياس، وقد زاد عليه شعور بالرضا والفخر كلما نظر إلى أعينهم وجدها سعيدة ضاحكة خالية من الحزن والخوف..

ضحكوا كثيرًا وإن لم تخل ضحكاتهم من مشاكسة لبعضهم الآخر، فتارة يتفق إلياس وفيروز ضد ليلة، وتارة تتفق ليلة وفيروز ضد إلياس..

وعندما استسلمت فيروز للنوم قررا أن يتشاركا القهوة، ذلك الوقت الذي أصبح هوايتهما المفضلة.

- أنـا اللي عليّ الدور اختار المرة دي.

- وأنا متحمس لاختيارك.

أخذ إلياس القهوة بينما أعطته ليلة سماعة الأذن وأراحت رأسها على كتفه

متشبثة بذراعه بإحدى يديها وبالأخرى تمسك كوب القهوة:

لـمــا بــــدا يـتــثـنــى

حبــي جـمالـه فـتــنـنـا

أمــر مــا بلــحظة أســرنا

غصــن ثــنا حــين مــال

وعـــدي ويــا حــيرتــي

مــن لـي رحــيم شكــوتــي

فــي الــحب مــن لوعــتي

إلا مــلــيــك الــجــمـال

ابتسم إلياس حينما انتهت لينا شماميان من الغناء، فشعرت ليلة بقلبها يرقص فرحًا إثر ابتسامته العذبة، عرفت عنه الكثير خلال اليومين الماضيين وعن دراسته بكلية التجارة التي كان يعشقها.. عن كل الوظائف التي عملها حين كان طالبًا كي يؤمن نفسه ماديًّا، وعن أحلامه الجديدة عندما استعاد مستحقاته المادية من عائلته.

قرر أن أول شيء سيفعله هو إقامة معرضًا فنيًّا كبيرًا يضم كل اللوحات التي رسمها والده ووالدته خلال رحلتهما القصيرة المؤثرة..

- قررت هتعمل المعرض فين؟

- هـنـعـمل.. أنا مش هينفع أعمل حاجة وأنتِ مش معايا يا ليلة..

أخجلها رده واكتفت بابتسامة تنطق عشقًا.

- معرض كبير في القاهرة، ومعرض في لبنان.. وأنتِ هتساعديني في تنظيم المعرض في كل حاجة.. من أول اختيار المكان لحد أماكن العرض.. والتصوير.

- موافقة..

- إلـيـاس.. في حاجة لازم أقولك عليها.

شعر إلياس بارتباكها ومعالم الحزن على وجهها، فقال وهو يمسك يديها بلطف وحنان: لو حاجة من اللي حصلتلك، فأعتقد إني عرفت كل حاجة!

- إلا أهم حاجة.

- أهم حاجه هي إنك معايا دلوقتي!

- إلياس.. أنا مش بخلف.

هدأت ملامحه وظهرت عليه معالم الراحة والهدوء وقال: هي دي أهم حاجة؟!

- العنف اللي اتعرضتله.. سببلي.. مشاكل و ...

- ليلة..

قاطعها فصمتت ناظرة إليه بحزن، فقال: أنـا بحبك!

- حتى لو ..

قاطعها ثانية قائلًا: حتى لو أي حاجة حصلت.. قولتلك الأهم إنك معايا.

شعرت ببعض الراحة وتركت رأسها تستند على ظهر المقعد، فنظر إليها إلياس معاتبًا وهو يضمها بيده كي تستقر رأسها على موضع قلبه، ثم قال بحنان:

ليلة.. المهم إننا سوا.. صدقيني.

رفعت رأسها، ثم قالت بحماس مفاجئ: أنا كنت ناوية اتبرع بكل الفلوس اللي ورثتها واعتبرتها مش بتاعتي.. بس أنا دلوقتي غيرت رأيي وهعمل زيك.

نظر إليها مستفهمًا، فقالت: أنا هحط كل الفلوس في دار للأيتام..

وتكون ملحقة بحضانة ومدرسة ابتدائي وإعدادي وثانوي.. سلسلة مدارس خاصة يعني وأرباحها تغطي مصاريف الدار.. وأطفال الدار هيتعملوا في المدارس دي ببلاش لحد الثانوية.. كأنهم في مدارس دخلي وأثناء إقامتهم هنعلمهم كل حاجة سواء هوايات أو حرف بحيث نخرجهم متعلمين وعندهم حرفة أو موهبة يعرفوا يشتغلوا بيها أو يكملوا دراسة.. إيه رأيك؟

- رأيي؟! دي فكرة عظيمة يا ليلة.. تسمحيلي أبقى شريكك فيها؟

- اممم أفكر...

- والله! تفكري؟!

- موافقة ماشي..

ضحكا معًا حتى كادت فيروز تسقط من بين ذراعه، فاقترب أكثر من ليلة واضعًا فيروز على رجله الأخرى بجوار ليلة وأحاط بذراعه ليلة التي أراحت رأسها على صدره ضامة فيروز بيديها، وأحاط هو بيديه الأخرى فيروز محتضنًا كف ليلة بكفه، ثم قال بصوت هامس: نحاول ننام بقى الكام ساعة دي لحد ما نوصل.

وافقته ليلة وراحا في سبات عميق كما لو كانا على فراش من حرير في بيت دافىء، وليس على مقعدين في قطار مزعج!

الفصل الحادي عشر

- في إيه يا معاذ ماتقلقنيش!

- أنا بحبك أوي يا نورا.. والله العظيم بحبك أوي بس موت محسن كسرني.. أنا مفروض أكون متماسك وأنا اللي أسندك بس أنتِ متماسكة أكتر مني ودا محسسني بالذنب.. أنتِ عارفة محسن كان بالنسبالي إيه..

ترقرقت الدموع في عينيها واقتربت منه مؤازرة له، فقال: أنا حاسس إني هحتاج علاج نفسي عشان أعدي الموقف دا.. أنا إحساس الذنب بيقتلني كل يوم..

كل ما افتكر إني سبته بعد صلاة الجمعة، وإني كمان اتأخرت على ما لحقته.. كان زمانه دلوقتي معانا..

أجهش بالبكاء وكذلك نورا التي لم تتمالك نفسها، فقال: أنا آسف يا نورا إني هسيبك في ظرف زي دا بس أنا لازم ألحق نفسي عشان أقدر أكمل معاكِ.. أنا حجزت عند دكتور في القاهرة وهسافر بكرة..

- هترجع امتى؟

- مش عارف... بس هقعد هناك لحد ما ابقى كويس..

بس هجيلك كل أسبوع في ميعادنا... موافقة؟

- موافقة يا حبيبي.

قالتها بحنان بالغ وهي تحاول بث الأمل بداخله، فقال: بس أنا مش عاوز أي حد يعرف غيرك..

هنقولهم إن جالي شغل في القاهرة ضروري أخلصه قبل ما نتجوز.

- موافقة..؟!

أنا معاك يا معاذ.. معاك على أي حاجة.

نظر إلى عينيها التي طالما أسرته بحنانها وحبها فاقترب منها وأخذها بين ذراعيه

تشبث بها وتشبثت به بقوة..

أرادت أن تبثه بعض الأمان أنها بجواره تسانده وأراد أن يبثها حبه وعشقه لها،

ظلا هكذا قرابة الخمس دقائق.. يحتضنها دافنة رأسها في صدره تحاوط كتفيه بذراعيها.. ثم قالت له هامسة: بـحـبـك!

- هرجعلك على طول..

ثم تركها ورحل بعدما ودعته وداعًا يليق بعاشقين مثلهما.

وصل القطار أخيرًا إلى محطته الأخيرة، كانت ليلة على اتصال مع نورا التي فضلت أن يتقابلا في الإسكندرية، وبالفعل وصلت نورا في الميعاد المحدد،

ذعرت فيروز عندما رأتها وظلت تبكي وتصرخ وتبعد نظرها عنها.

صدمت نورا لردة فعلها، وتذكرت حديث ليلة عن عدم رغبة فيروز في التحدث مع أي منهم.

حاول إلياس تهدأتها حتى أخذها بعيدًا تمامًا عن نورا مخبرًا ليلة أنه سيبتعد بها حتى ينتهي هذا اللقاء، ثم جلست الفتاتان في إحدى الأماكن القريبة من المحطة وقصت ليلة على مسامع نورا كل ما توصلوا إليه خلال الأيام الماضية، وقد ذهلت نورا تمامًا.

– أمل ومحسن اتخانقوا وهي سابت البيت وأخدت البنت.. بس احنا علاقتنا بيها مش قوية أوي فمحدش فينا كان مهتم يكلمها، لكن لما محسن اختفى ولاقيناه حالته خطيرة حاولنا نكلمها، لكن دايمًا موبايلها كان مغلق.

– و ازاي ماوصلتوش ليها بعد كدا! ازاي اصلًا سبتوا فيروز دي مهما كان بنتكوا يعني!

- للأسف.. قبل وفاة محسن بيوم عرفنا إنه أصلًا... مممم!

- إيه؟

صمتت نورا محرجة وقد أربكها الموقف بأكمله..

- من فضلك كملي!

- اكتشفنا إنه عقيم.

- إيه؟

- احنا ملحقناش نعرف أو نفهم أي حاجة، لأن أمل اختفت ومانعرفش طريقة وصول ليها وطبعًا مانعرفش مين أبو البنت.

- أفهم من كدا إن انتوا مش مستعدين تقبلوها في بيتكوا تاني؟

- افهميني يا ليلة... الموضوع حساس جدًّا.. علاقة أمل أصلًا من الأول مع الكل كانت وحشة جدًّا.. محدش كان بيحبها ولا هي كانت بتحب حد.. وبعد اللي حصل دا اللي طبعا كان إرادة ربنا، لكن هم شايفين إنها السبب.. غير حقيقة عقم محسن اللي عملت عندهم صدمة كبيرة جدًّا وأكيد مشاعرهم تجاه فيروز مش هتبقى صحيَّة أبدًا.

- فيروز رافضة أصلًا أي اتصال بيكوا بسبب الكلام اللي اتقال لها!

- صعبانة عليّ أوي ومش سهل عليّ أشوفها خايفة مني بالشكل دا... ربنا ينتقم من اللي كانت السبب..

صمتا قليلًا وكل منهما تفكر في تلك المسألة المعقدة حتى قالت نورا بحرج:

طيب هو أنتِ ساكنة فين؟

شعرت ليلة بالحرج، فبماذا تخبرها؟ لقد عادت من دبي بعدما خضعت للعلاج عدة أشهر على شقة قديمة كانت ملك لوالدها، ولم يعرف عنها أحد شيئًا وبعد وصولها بيوم واحد قررت الذهاب إلى الإسكندرية وبعدها قابلت فيروز.

عادت من شرودها ثم قالت: أنا كنت في دبي ولسه راجعة.. وساكنة في القاهرة..

- وبتشتغلي؟

ترددت ليلة ثم قالت: أنا وجوزي بندير مشروع تعليمي.. سلسلة مدارس خاصة يعني.

ظهرت بعض الراحة على وجه نورا ثم قالت: أنا عارفة اللي هقوله دا صعب وأنتِ من حقك تقبلي أو ترفضي.. أنا شايفة فيروز مطمنة معاكوا، وانتوا واضح بتحبوها وهتحافظوا عليها.. أنا ممكن أفضل على تواصل معاكِ بس مش هعرف أي حد في العيلة بالقصة

دي.. يعني كأن امل هربت ببنتها بعد ما محسن عرف حقيقتها وكدا كدا محدش هيبقى عاوز يفتح السيرة دي بعد كدا..

هدورلك على شهادة ميلاد فيروز عشان تبقى معاكوا.. هي ممكن تروح دار أيتام ومن خلال الدار تخلصوا الأوراق الرسمية اللي تثبت إنكوا بتربوها عشان أي مسألة قانونية بعد كدا..

لو مش هتقدوا أنا هتفهم دا وهاخد البنت وارجع بيها و زي ما يحصل بقا.

صدمت ليلة ليس بكلام نورا، لكن لترتيب الأحداث منذ استعادت وعيها بالمشفى، فالأموال التي سلبت منها عادت لها و إن كانت أقل.

كانت تحت قبضة إخوتها ومن بعدهم زوج حقير الآن أصبحت حرة تمامًا، فقدت الأمان فوجدته في إلياس، حتى أمومتها التي حكم عليها بالموت قبل أن تولد منحتها إياها فيروز..

وجدت نفسها ممتنة لتلك الفتاة الصغيرة المشاكسة التي وهبتها دون قصد كل ما كان ينقصها في حياتها، علت الابتسامة وجهها وقد قررت أن تتخذ قرارها سريعًا دون الرجوع إلى إلياس.

نظرت إلى نورا التي شحب لونها وبدا أنها تحت صراع عقلي ونفسي كبير، وقد كانت تفكر كيف ستستقبل العائلة فيروز من

جديد، لكن ليلة أزالت عنها كل ذلك العناء المنتظر، وقالت في ثبات وهدوء: هستناكِ بشهادة الميلاد.. أنا موافقة.

وبعد مرور ثلاثة عشر عامًا، جلست سيدة يبدو عليها الحزم والقوة على مكتب أنيق تنهي بعض الأعمال على حاسوبها، وما أن خلعت عويناتها الطبية حتى ظهرت ملامحها البريئة التي تشع حنانًا، أراحت ظهرها ورأسها للخلف وهي تفك بيدها رابطة شعرها حتى يتحرر ويهطل على وجهها الأبيض المشرب بالحمرة متموجًا كعادته بلونه الكستنائي اللامع تحت أشعة الشمس مثل عينيها البنية.

نظرت في ساعة يديها، فقد حان وقت عودتها لأسرتها الصغيرة التي اشتاقت لها بشدة، نهضت تلملم أشيائها، ثم سمعت صوت دقات الباب.

تنهدت بحنق، فهي تريد العودة سريعًا، لكنها فوجئت بسكرتيرتها الخاصة تخبرها أن هناك بعض الأعمال التي يجب أن تنتهي اليوم على وجه السرعة.

عادت إلى جديتها وحزمها متأففة، وانغمست في عملها من جديد حتى انتهت قبل منتصف الليل بربع ساعة.

كيف مرَّ عليها الوقت لا تعلم، لكنها في أمس الحاجة للعودة الآن.

خرجت من مكتبها واجتازت طرقة صغيرة حتى أصبحت في حديقة المبنى، ابتسمت وهي تتذكر إصرارها على أن يكون مبنى الدار ملاصقًا لبيتها، وقد صممت بابًا داخليًّا تستطيع من خلاله التحرك بسهولة من بيتها إلى الدار والعكس.

دخلت بيتها وهي تتحرق شوقًا إلى أسرتها التي تركتها كامل اليوم دون رؤيتها، وجدت المنزل غارقًا في ظلام دامس، وأصيبت بخيبة أمل، وقد ظنتهما نائمين.

تحركت بحرص شديد حتى لا تصدر صوتًا يزعجهما، لكنها فوجئت بالضوء يعود مرة أخرى، وقد وقفا في منتصف الصالة أمامها كعكة عيد ميلاد كبيرة تضم صورهما معًا ويغنيان لها بمناسبة ذكرى مولدها..

– كل مرة بتضحكوا عليّ وكل مرة بصدقكوا.

– كل سنة وأنتِ طيبة يا ماما.

– كل سنه وأنتِ طيبة يا حبيبتي.

قالتها فيروز وتبعها إلياس بغيرة مصطنعة..

– ليلة حبيبتي أنا بس لو سمحتِ!

– وحبيبتي أنا كمان.

– لا.

ضحكت ليلة على هذه المشاكسة التي لا تنتهي أبدًا ثم قالت: يا ترى بقى إيه الهدية المرة دي؟

أشار إلياس لفيروز التي تحركت بأداء حركي وهي تقول: اتفضلوا معايا ناحية الحيطة دي.. هي دي المفاجأة.

ذهلت ليلة فقد كان الحائط مليئًا بالصور الفوتوغرافية التي التقطت لهم في مواقف عديدة، بعض الصور في أسوان وأخرى في لبنان والقاهرة حيث المعرض الفني الذي حقق نجاحًا مبهرًا وما زال حديث الساعة حتى الآن..

بعض الصور لهما مع فيروز في أول يوم دراسي لها وصور أثناء بناء دار الأيتام وسلسلة المدارس.. مواقف عديدة جمعتهما، ولكن توسطت تلك الصور صورة كبيرة مميزة، وقد كانت من حفل زفافهما البسيط الذي لم يجمع سوى إلياس وليلة وفيروز.

***

أما في منزل الدسوقي، فقد كان يمتلأ بالضجيج والصياح، فاليوم هو الجمعة

حيث تبدأ جميع أحداث هذا المنزل العتيق..

الجد الأكبر الذي كان أحد أهم رجال هذه البلدة شأنه شأن جميع الكبار في ذلك العصر القديم، كان له منزل كبير مزودًا

بحوش واسع عمَّره بالأبناء والأحفاد حتى توفاه الله بعد وفاة حفيده الأكبر بعام واحد..

تزوج معظم الأحفاد وأنجبا، فعادت الحياة للبيت الكبير مرة أخرى بعدما احتله الحزن.

اليوم ستزور البيت بعد غياب دام لأشهر لظروف عمل زوجها الطارئة، ولولا وعدها له أنها لن تتركه أبدًا لبقيت في المنزل مع أشقائها.

صاحت نوارة بطفولية لا تلائم فتاة عشرينية، لكنها ستظل دوما آخر العنقود المدلل: نـــورا وصـــلت.

تبعتها صيحات الأطفال مهللين لعودة نورا وزوجها معاذ وأطفالها الأشقياء نورا والتوأم سمية ومحسن، فاستقبل الأطفال أطفالها الثلاثة، بينما أسرعت هي لتسلم على أسرتها الكبيرة.

اجتمعا على المائدة التي يتوسطها سالم الآن وعلى جواره زوجته الصابرة إلهام، بينما ضجيج الأطفال يعلو ويعلو، وكأنه يرفض استحضار ذكريات الماضي الأليم ويعلن بوضوح سطوته الآن على الحاضر والمستقبل.

تـــمـــت

٣١-١٢-٢٠٢٠

للتواصل مع الكاتبة

Gmail : Rehabosamasemary@gmail.com

Facebook : Rihab Semary

الأعمال السابقة للكاتبة

- طيف
- النهاية
- الطعنة الأخيرة
- مسافة السكة
- حواديت الليل